

لا يستطيع أحد قراءة كتاب الإسلاموفوبيا بدون أن تتملكه  
مشاعر البهجة واليأس والتي نادرا ما يحدث وأن تتزاوج.  
البهجة لاكتشاف أن المسلمين العرب والأمريكيين يأخذون  
علي عاتقهم تحدي أحدث الأيديولوجيات المهيمنة القائمة، أي  
الإسلاموفوبيا، التي ترسخت بعمق، والتي يتولي هذا الكتاب  
تحليلها عن كُتب.  
بيد أن ثمة مشاعر يأس لتلك المعاناة القاسية وغير الضرورية  
التي يخبرها الملايين في داخل الوطن وفي الخارج، والتي لا يمكن  
لها إلا وأن توجع تلك المشاعر.

ذلك لأن هذا الكتاب فى جوهره هو نقد لاذع للإمبراطورية، ولكيفية خدمة الإسلاموفوبيا لأهداف الإمبراطورية، حيث إنها ما هى إلا أحدث موجات الذعر التى غمرت الذات الأمريكية وتغلغلت فيها.

ذلك لأنه فى أعماق الذات الأمريكية، فإن ثمة خيالاً مصاباً بجنون الارتياب والعظمة، وفقاً لما جاء فى الكتاب الأخير لبارى سبكتور عالم النفس والذى ذهب إلى أن مفهوم «الأخر» قد استُغل من أجل تنقية الهوية الأمريكية وإضفاء المثالية عليها، الأمر الذى يعمل على ترسيخ نموذج نحن/ هم المعيارى فى ثنائيات «الخير مقابل الشر» التبسيطية. يوضح لنا سبكتور مدى مرونة أسلوب التفكير هذا وإمكانية استخدامه لتحقيق أهداف متنوعة.

«حينما يُستدعى أحد أعمدة النموذج الأصيل لـ «الأخر» (كان الشيوعية سابقاً وأصبح الآن الإرهاب)، يبدأ العمود الآخر (الجنس أو العرق) فى التشكل تلقائياً.

تجمع الهجرة، والتي لم تمثل قضية كبرى حتى ٩/١١، بين الاثنين. فى عام ٢٠٠٧، قال أحد نشطاء الحزب الجمهوري: قد يحضر بعض هؤلاء الناس إلى هنا للحصول على عمل فى غسيل الأطباق، فيما يحضر بعضهم لخطف الطائرات، لا أستطيع التمييز بين خوسيه كورفو وبين عضو تنظيم القاعدة..» كان، بحديثه هذا، يؤطر القضية بحيث يؤكد على «الأخرية» لا على التوجهات الإجرامية. وفى نفس العام، طرحت مجالس الولايات التشريعية أكثر من ١٤٠٠ من قوانين إجراءات الهجرة، وهو عدد يفوق ما طرحتة فى العشر سنوات السابقة.

كشخص قضى شبابه فى حركة «تحرير السود» فقد يعتقد البعض أنني، بصفتى هذه، لابد وأن أستخدم تلك الحقبة سيئة السمعة كمنظارٍ تاريخى للعصر الحالى الذى يتسم بحملات الكراهية الإعلامية والثقافية والسياسية القومية المكثفة ضد العرب والمسلمين فى الداخل الأمريكى بل وفى كل أنحاء العالم.

لكننى لن أفعل ذلك؛ هذا لأننى لدى قراعتى هذا النص، لم يكن ذاك هو الزمن الذى ترددت أصداؤه فى وعيى. هذا بالرغم من حقيقة أن الوقائع التاريخية تقول إن المسلمين الأوائل الذين حطُّوا على شطآن هذا البلد وصلوا وهم مصفدون بالأغلال كجزء من شتات أهالى غرب إفريقيا الهائل والذين تم إحضارهم أسرى مكبلين إلى القارات الأمريكية.

لتجربة أيوب سليمان ديالو، الأسيرة الإفريقية المسلمة والتي أُسِرت عام ١٧٣١<sup>(١)</sup> دلالاتها فى سياق هذا التاريخ المخفي.

وعلى الرغم من أن القوى التي أُطلقت، وكما يصفها كتابنا هذا، مستمدة من أعماق منابع مشاعر عدم الأمان والعنصرية الأمريكية، إلا أنها تكاد تكون محاكاة لتجربة اليابانيين الأمريكيين فى القرن العشرين.

أنداك تمت شيطنة أناس، كان ينظر إليهم فى وقت ما بصفتهم أمريكيين نموذجيين، وأعضاء صالحين فى الجسد السياسى القومى بكل المعانى المتخيلة (على الرغم من عدم انتمائهم للجنس الأبيض)، شيطنتهم من خلال السياسيين والأصوات الإعلامية والمصادر الثقافية الأمريكية. أصبحوا نماذج لـ «الآخر» من ثم وُضِعوا خارج نطاق «الضمانات» التى يكفلها الدستور الأمريكى. اقترُض أنهم خونة، ليس بسبب أى شىء فعلوه، لكن بسبب من هم.

فى أعقاب الهجمات اليابانية على هاواي، قاومت مصادر الإعلام الأمريكية، فى البداية، الدعوات إلى إساءة معاملة اليابانيين الأمريكيين.

لكن هذا لم يدم طويلا. بين بيتر أيرنز، الأكاديمى القانوني، أنه لم يمض سوى بضعة أيام حتى ترددت أصداء الأصوات العنصرية فى الوسائط الإعلامية بدعوات إلى ما كان، فى جوهره، عقابا جماعيا، ثم تردد هذا فى جميع الأوساط. وأصبح العقاب الجماعى سياسة دولة.

فى اليوم الذى أعقب بيرل هاربور، رأت لوس أنجيليس تايمز أن غالبية اليابانيين «مواطنون صالحون» ولدوا وتربوا هكذا.

(١) عن كتاب «عقيدة أبائنا» تأليف موميا أبوجمال، دار نشر ترنتون، ٢٠٠٣.

ثم بعد دعوة السياسيين من أمثال ليلاند فورد، عضو الكونجرس عن لوس أنجلوس، إلى وضع «جميع اليابانيين، المواطنين منهم وغير المواطنين». فى معسكرات اعتقال بالداخل الأمريكي، غيرت لوس أنجلوس تايمز نغمتها وذلك لأن «مقتضيات الحرب» تتطلب مثل هذا الإجراء.

وجّه وولتر ليبمان، كاتب الأعمدة الذى كان يحظى بشعبية بين القراء، النقد إلى واشنطنون «لعدم استعدادها» لاتخاذ إجراءات «الترحيل الجماهيرى والاحتجاز الجماهيرى» لليابانيين الأمريكيين. بدا وستبروك بجلار، وكان أيضا كاتب أعمدة صحفية، مثل الدعاة إلى كراهية المسلمين ومروجى الخوف منهم الذين ينتمون إلى الحقبة الراهنة حينما كتب يقول «لا بد من وضع اليابانيين فى كاليفورنيا تحت الحراسة المشددة على الفور لآخر رجل وامرأة منهم - ولتذهب إجراءات الاستدعاء والأمر بالمثل إلى الجحيم حتى انتهاء الخطر».

لم يشفع لليابانيين الأمريكيين أنهم لم يرتكبوا أية أعمال تخريبية ضد أمريكا بإطلاقه، بيد أنه، ووفقا لأسلوب التفكير المتحيز الأحمق الذى كان له أن يعاود الظهور فى زماننا هذا، فإن هذا البرهان على عدم فعل أى شىء، لم يكن سوى برهان على النوايا الخبيثة. ذهب جون چيه دوويت الجنرال الأمريكى فى «توصيته النهائية» التى أرسلها إلى هنرى إل. ستيمسون وزير الحرب، ذهب إلى الدرك الأسفل من العنصرية فى عرضه لأفكاره!

«إن حقيقة عدم حدوث أعمال تخريبية حتى تاريخه هى ذاتها باعثة على القلق ودلالة تؤكد أن مثل هذه الأعمال سترتكب.. إن الجنس اليابانى جنس معاد، وعلى حين أن الكثيرين من الجيلين الثانى والثالث من اليابانيين الذين ولدوا على الأرض الأمريكية ويحوزون على المواطنة الأمريكية قد «تأمركوا» فمازالت خصائصهم العرقية مستعصية على الذوبان».

لدى تحدته أمام هيئة من الكونجرس فيما بعد، كانت ملاحظات الجنرال أكثر تحديدا وحيوية «اليابانى هو اليابانى؛ سواء كان مواطنا أمريكيا أم لا. ليس لدى ثقة فى ولائه على الإطلاق».

وعلى حين أنه من النادر وجود مسئول يتحدث بمثل تلك الصراحة اليوم، إلا

أنه ليس ثمة حاجة للذهاب بعيدا كي نجد جنزالا يشبهُ الحرب على العراق بالحرب المقدسة ضد الكفرة، أو نسمع عسكريين أمريكيين يشيرون إلى العرب/ المسلمين بأنهم بلهاء حمقى، أو يلقبون أحدهم بـ «الحاجي» أو يطلقون عليهم الكنية التي كانت سائدة في مرحلة ريجان أي «زنوج الصحراء».

بيد أن هذا القياس ليس مُحكماً، إذ إن الهجمة التي شُنت في ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ كانت هجمة شنتها دولة قومية ضد دولة قومية أخرى. لكن علينا أن نعترف أن المحكمة العليا في قرارها الذي أصدرته آنذاك، لم تعارض تلك المعاملة التي كان يتعرض لها مواطنون أمريكيون، بل أضفت عليها الشرعية.

أما هجمات ٩/١١ فقد ارتكبتها فاعلون لا ينتمون إلى دولة - بل إلى جماعة صغيرة لم يعرف عنها الكثير حتى آنذاك. وفي واقع الأمر، فإن الأمر يصبح لافتا جداً في ضوء هذا العامل تحديداً؛ لأنه يوضح كيف أنه بإمكان البلدان العظيمة التصرف بأساليب لا تُعبر عن الجنون المحض، بمجرد تشجيع التحيزات والكرهية الشديدة وإطلاقها.

في إنجلترا، الشريك التابع لأمريكا في الكارثة بالعراق، تحدث أعضاء البرلمان بصراحة وعلانية على الأقل (بخلاف أعضاء الكونجرس في الولايات المتحدة). قال السير بيتر تاسيل، عضو مجلس العموم، لزملائه بالبرلمان ما كان يعرفه معظم السياسيين وكادوا ألا يذكره إلا نادراً: إن غزو الولايات المتحدة/ بريطانيا واحتلالها للعراق، دُمّر البلد الوحيد الذي لا وجود فيه للقاعدة، والتي لم تجرؤ على دخوله؛ وأن الغزو كان قائماً على أساس الأكاذيب والأضاليل وتشويه الحقائق، وأضاف:

«نحن مسئولون مع أمريكا عن موت مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال العراقيين وتشويهِهم. لقد دفعنا بالطبقة الوسطى بأكملها إلى خارج العراق. فقد حوالي ٤ ملايين عراقي منازلهم ومواطنهم. توقفت إمدادات المياه والصرف الصحي وتم تدمير الخدمات الصحية التي كانت الأفضل في الشرق الأوسط بأكملها».

من الواضح إذن أن للإسلاموفوبيا مغيباتها الواقعية والمروعة، والتي يمكن للقوى

السياسية والنخب الاجتماعية إطلاقها حسب الرغبة لإحداث الدمار الهائل الدائم. أنهى السير بيتر حديثه بالقول «إن الهجوم على العراق كان أعظم خطأ استراتيجي ارتكبه الغرب منذ فشلنا في سحق عسكرة الراينلاند عام ١٩٣٨. استمرت مغبات ذلك الفشل لسنوات عديدة، وبالمثل فإن مغبات هجومنا على العراق ستستشعر لعقود قادمة».

حينما كانت الولايات المتحدة مازالت في طور الطفولة والأمل، قام جيمس ماديسون بمساعدة توماس جفرسون بكتابة قانون الحرية الدينية لولاية فرجينيا، الذي يُعدّ سلف التعديل الأول في الدستور الأمريكي. في قانون عام ١٧٨٥ تم تبني مبدأ الحرية الدينية، ونصّ على أنه ليس بإمكان العقيدة الدينية (أو اللاعقيدة) أن تؤثر بأي أسلوب في «قدراتهم المدنية».

وبعد سنوات، ذكر جفرسون وهو يكتب عن قانون ماديسون إن المقصود به كان «أن يشمل في إطار الحماية التي يوفرها لليهودي وغير اليهودي، المسيحي والمحمدي [مصطلح يعنى المسلم ينتمى إلى الفترة الكولونيالية]، الهنديوسي، والكافر من جميع الفئات والطوائف».

وفيما أكتب هذا، تجنبت البلاد لتوها خوض معركة مصطنعة من النقاشات الخلافية بسبب ما دعا إليه الواعظ الإنجيلي اليميني من حرق نسخ من المصحف في ٢٠١٠/٩/١١. يقابل بناء المسجد المقترح إقامته في وسط المدينة بمانهاتن باعتراضات صاخبة واسعة المدى من أهالي نيويورك، الذين، وفيما يعترفون بأن للمسلمين الحق في إقامة المبني، إلا أنهم يبدون قلقهم من تدنيس «الموقع المقدس» لـ ٩/١١.

ما الإسلاموفوبيا إلا أحدث فوبيا تستعر، كالحمي، في الذات الأمريكية.

نعتمد أنها، هي الأخرى، ستمضى في طريقها وتختفى.

لكن مغباتها، كما يشير السير بيتر تاپسل، من حيث المعاناة البشرية، التي ستستمر لسنوات وسنوات قادمة، لا يمكن لنا حسابها أو تخيلها. «لكن. ولكن...».

تخيل أمًا يابانية أمريكية، كان ابنها يحارب في وحدة قتالية أثناء الحرب، وقامت حكومتها باحتجازها في معسكر اعتقال في انتهاك تام وكلّي للدستور الذي أقسم ابنها على الولاء له، وفضلا عن الخوف الحقيقي الذي تشعر به كل أم على ابنها، فما كانت أفكارها عن بلدها وقتئذٍ؟ اعتقدت أنه بلد أصيب بالجنون؟

لا تتغير الأشياء لمجرد أن الوقت يمر. لابد للحركات الاجتماعية والمنظمات الاجتماعية أن تضغط من أجل إحداث التغييرات في مواجهة الأمر الواقع العنيد المانع.

لا يعرف سوى القلة في الولايات المتحدة هذا بأفضل مما يعرفه الأفارقة الأمريكيون.

إن كتاب شيهي خطوة نحو ذاك المستقبل المختلف، حينما تُفهم الإسلاموفوبيا على حقيقتها، وحينما تُستوعب ويتم إدانتها وشجبها بصفتها ذاك السم الذي يشكل كنهها.

أمنياتي بأن يصل هذا إلى عقول كثيرة، وقلوب كثيرة.

موميا أبوجمال

## الإسلاموفوبيا وأساسيات

## «الحضارة الغربية»

ماذا اعتقد بشأن الحضارة الغربية؟ اعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة جداً  
موهاننداس غاندى (١٩٣١)

في كتابه «الإسلاموفوبيا: الصلة الأنيقوأوجية ضد المسلمين»، أمنا  
ستيفن شيهي بمرشد مكثف عن تكوين أحدث المفاهيم السياسية/ الاجتماعية  
- الأمريكية - التي طورها الغرب من أجل تعزيز هيمنته على المناطق الإسلامية  
- تعزيزها في الداخل والخارج - وتوسيع مداها. كان للعلاقات المبكرة بين  
الغرب والعالم الإسلامي، والتي تشكلت في ظل «الأخر» الإسلامي، أثرها ليس  
فقط على جوهر «الحضارة الغربية» ذاته، بل أيضاً أدت إلى الإمبريالية الغربية،  
ذلك المرض الاجتماعي الكارثي الذي مازالت ممارساته المدمرة تُنزل المعاناة  
بشعوب العالم اللأوربية، المسلمين منهم وغير المسلمين.

مما لا ريب فيه، ويدون قدر كبير من المفارقة أو السخرية، فإن كتابات برنارد لويس وسمويل هنتنجتون الطنانة عن «صدام الحضارات»، وكما يبين شيهي في دراسته المثيرة للفكر التي بين أيدينا، كانت النذير الذي مهدّ لقدم الموجة الجديدة، وإن لم يكن الشكل الجديد، من الإسلاموفوبيا. إن تصنيف الكاتب، ثاقب البصيرة، لـ «خطاب الحضارات» الذي يكمن في جوهر الإسلام يجعل من الصعب أن نقرر ما إن كان من الأفضل وصف الظاهرة، التي يشار إليها باسم «الحضارة الغربية» [وهذا إرداف خلفي، أو جمع بين لفظين متناقضين] بدقة أكبر على أنها تزيف أم أنها وقاحة. وفي الحالتين، فقد ظلت دائماً أكذوبة خيالية. بل إن وضع أوروبا الجغرافي ذاته، مجرد اختراع، فهي ليست قارة في حد ذاتها - ناهيك عن كونها «القارة» كما ظل غالبية مدعى المركزية الأوروبية يسمونها منذ زمن طويل - إذ إن أوروبا، المركز المكاني لـ «الغرب» - جغرافياً - ما هي «إلا شبه جزيرة متسعة غربي آسيا».

ثمة الكثير من الأباطيل أيضا فيما يقال عن مكانة أوروبا الثقافية. إن أصل مصطلح «أوريا» ذاته يرجع إلى اللفظ الفينيقي erub، الدال على «مكان في ظلام العالم السفلى» وعلى الجهل. ربما يكون من البديهي أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون منطقة ظل ينظر إليها لما يربو على ألف عام على أنها لا تعدو أن تكون موضعا متخلفاً ثقافياً تلفه ظلمة الجهل، ولا علاقة له البتة بشئون المجتمعات المتحضرة، لا بد لهم وأن يَكْمِنُوا، فيما بعد، مشاعر الاستياء والحقد، وبنفس الدرجة، فمن المرجح أن تلك المشاعر قد أجهجا حس لا يهدأ بالنقص الثقافي مضي يتعمق. وفيما قام «الغرب» فيما بعد بزعم أن أصوله الثقافية تعود إلى حضارة الإغريق القديمة، وقام منذ القرن الثامن عشر صعوداً، بتلفيق «طبخة» إثباتية معقدة مليئة بالتفاصيل قُصد بها تقديم «البراهين» على هوية الإغريق «الآرية»، فإن حقيقة الأمر هي أن اليونان الكلاسيكية، وسابقتها، كانت أكثر ارتباطاً، ثقافياً وجينياً، بمصر وبلاد الشام من

ارتباطها بأية منطقة في الشمال. علاوة على ذلك، فقد كان يفصل بين ظهور الغرب وبين «سلفه» المزعوم [أى اليونان القديمة]، فترة زمنية استمرت عدة قرون بعد سقوط روما، «عصر مظلم» بحق، قامت أثناءه «الكنيسة، عن عمد، بقمع المعرفة الإغريقية الكلاسيكية [الوثنية]».

تم الحفاظ على الموروث الفكرى لليونان الكلاسيكية وتوسيع مداها، وتنقيحها، وبشكل حصري، من خلال الجهود الثقافية والعلمية العربية/ الإسلامية لمدة تربو على سبعمائة عام. كان للغرب أن يتعلم فى نهاية المكان كتابات أرسطو وأقرانه من خلال الجامعات الإسلامية العظيمة التى أقيمت فى قرطبة وطليلة وبيداد ودمشق والقاهرة والمغرب وتونس وأصفهان والتى أنتجت كبار الفلاسفة من أمثال الفارابى (توفى ٩٥١). وابن سينا (٩٨٠-١٣٧) وابن رشد (١١٢٦-١١٩٨). وفى واقع الأمر، فإن الدور المفتاح الذى لعبه الفكر الإسلامى كان جليا فى مولد «الهوية الغربية» ذاتها، وهو شأن يعود إلى تتويج الإمبراطور شارلمان عام ٨٠٠م وما لازمه من إقامة «إمبراطوريته الرومانية المقدسة»، ذلك الكيان الذى يعرف أيضا باسم «العالم المسيحى الغربى».

وبما أن الهدف من تلك الممارسة كان هو توكيد سطوة ما أصبح يعرف فيما بعد بالكاثوليكية الرومانية على أرثوذكسيات العالم المسيحى المشرقى (أى بيزنطة) كان من الضرورى لـ «الكاثوليكية الرومانية» تمييز نفسها عن الأرثوذكسية البيزنطية على أسس لاهوتية. تم تحقيق هذا المطلب، إلى حد كبير، من خلال السطوة على التأويلات الإسلامية للكتاب المقدس، دونما ذكر المصدر، وكما ذكر المؤرخ البارز ماكسيم رودينسون:

«أعطى ابن سينا الغرب اللاتينى نموذجا للتجميع الإبداعى بأن جمع بين بُعد الخلاص الدينى وقدرة الإله على الخلق، وكلاهما من أساسيات الفكر الكاثولىكى الرومانى. وأبعد من هذا، فإن عمله يشير إلى أسلوب إبداعى من حيث إعادة النظر فى الروابط بين الله والعالم والإنسان من خلال إحاطته بنظريات أرسطو الخاصة بالمعرفة وتضمينها [فى تفسيراته].. لم يُصَفِ فلاسفة اللاهوت الغربيون سوى استخدام مصطلحات ابن سينا الإسلامية بما يتوافق مع الاستخدامات المسيحية. مثلا، قام روجر بايكون بتطبيق ما قاله ابن سينا عن الإمام المسلم، على البابا المسيحى».

وحتى فيما كانت تلك العملية مازالت قائمة، كان يجري تدعيم أسس الإمبراطورية التي أقامها شارلمان وتوسيعها من خلال جهود خلفائه الكارولينيين باتباع نموذج شارلمان الذي كان يقوم على أساس الغزو، وإجبار «القبائل الوثنية» التي تقطن المناطق الواقعة غربى آخنا، عاصمة الإمبراطورية، وشمالها وشرقها على اعتناق المسيحية. تم اتباع وسائل ذرائعية متنوعة وتجربتها من أجل حسم المشكلة المتأصلة بشأن أفضل الطرق لتجسيد حس محدد بهوية غربية على المستويات القاعدية الجماهيرية. تم العثور على الآلية التي من خلالها يمكن تحفيز الوعى بالهوية وإثارته حينما تُتخذ قرار شن أول حملة صليبية أثناء انعقاد مجمع كلارمونت الكنسى عام ١٠٩٥.

كان الهدف المُعلن لأول اجتياح غربى أوروبى لـ «المشرق» هو «استعادة» الأرض المسيحية المقدسة من مالكيها العرب المسلمين. تفضح الحملة الصليبية الأولى ومعها الحملات الثماني التي تلت الرغبات العارمة من جانب النخب الأوروبية الغربية البازغة للقيام بعمليات نهب شامل لمراكز التجارة المشرقية ذات العائدات المالية والثروات الهائلة مثل صور وعكا ويافا (المصادر المباشرة الوحيدة لحرب الصين الأسطوري، والشاي والتوابل وأيضا العاج، والأحجار الكريمة، والعمود، والفواكه الغربية، وغير ذلك من الرفاهيات)، بل وأيضا للتحكم الكامل فيها. بيد أنه، فقد تم تحويل مسار ثلاث من الحملات الصليبية على الأقل: الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤)، والخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١)، والسابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤) عن الذهاب إلى الأرض المقدسة، واستهدفت بدلا من ذلك غنائم القسطنطينية، ودمياط (مصر) الأكثر ثراء.

على نفس الدرجة من الأهمية من منظور تلك النخبة، هو أنه تم تنظيم الحملات كوسيلة لتعظيم المشروعية/ السلطة المتأصلة فى مفهوم البابوية الرومانية وتجسيدها على أرض الواقع، وبالتالي كمشروعية/ سلطة تراتبية النبلاء ممن يحظون بمصادقة البابا لممارسة أشكال علمانية من السلطة. يمكن قول الشيء ذاته أيضا عما أُسمى بإعادة الغزو [الفتح] Reconquista، والذي كان نتيجته تقليص مساحة أراضي الأندلس الإسلامية متسعة الأطراف وجعلها تقتصر على المساحة المحيطة بقرطاجنة بحلول عام ١٢٤٩.

بالطبع..

بالطبع، كان المجهود الحربي العدواني بأكمله يتوقف على تجنيد أعداد كبيرة نسبيًا من عامة الناس وحشدهم بحيث يشكلون وقود تلك الحملات التي لم تكن سوى حرب عدوان. من ثم، كان من الضروري، وفي استعارة منا لمصطلح من كتاب رودينسون، «شيطنة» الذين كانوا يؤمنون بتعاليم الإسلام في الوعي الشعبي، وكانت تلك عملية دعائية اضطلع بها رجال الدين بحماس لا يهدأ ولا تنطفئ جذوته. بلغت خبث محاولات ترسيخ تلك الصورة في الوعي الشعبي درجة من الشر والكيدية بحيث وخلال فترة قصيرة، أصبح من الشائع النظر إلى المسلمين، ليس فقط على أنهم أغراب، بل أيضا على أنهم خطر مهدد، بصفتهم «الأخر» الذين لا ينتمون إلى أشكال الحياة البشرية، ومن ثم، من الواجب، حرفياً، لا من الجائز فقط، القضاء عليهم.

وهكذا تجسّد سلوك «مقاتلي الرب» الذين شكلوا الحملات الصليبية التي شنّها العالم المسيحي الغربي منذ اللحظة التي وطئوا فيها «الأرض المقدسة». مثلاً، ووفقاً للروايات التي عاصرت الحملة كتلك التي سردها الأميرة البيزنطية أنا كومنتا مثلاً، التي قالت في وصفها لمسلك القوات الصليبية عندما استولوا على مدينة معرة النعمان وأعملوا القتل في سكانها: «قامت قواتنا بغلي الكبار من الوثنيين في أوعية الطهوء. أما الأطفال فقد تم وضع أجسادهم في أسياخ. وأكلوهم مشويين». تم تسجيل بشاعات مماثلة، رغم حدوثها على نطاق أقل في نفس العام، في مدينة نيقيا، وفي أنطاكية في وقت مبكر من العام التالي. أيضاً، واكب سقوط القدس في يوليو ١٠٩٩ حدوث مذبحة شاملة لسكان المدينة المسلمين والمسيحيين لم ينج منها النساء والأطفال «فيما أوقع باليهود داخل معبدهم وتم حرقهم أحياء. مثل هذا، في رأي البابا پاسكال الثاني «الذبح المقدس».

عملية التطهير «النفسي» النفسى التي جسدها تلك اللحظة التاريخية جلية ولافتة من حيث هولها وطبيعتها. كان الحس الجماعي بالذات الضروري لتكوين الهوية الثقافية، غير موجود واقعيًا في «الغرب»، لكنه تلاحم فجأة، ليس كمدلول

إيجابى [مثبت] بل كسالب [نقيض]، أى موقف موحد من التمايز الواعى عن «الأخر» الإسلامى. بأبسط العبارات، تردى هاجس الغرب القهرى بإلغاء سمو الآخر الإسلامى ليس فقط إلى حد القضاء على وجوده، كما حدث بالقدس عام ١٠٩٩ بل بانتحال الخصائص التى شكلت المكانة الأسمى للأخر، من خلال إدماج إنجازات الأخر فى مفهوم الغرب عن ذاته وتخليه لها. تمت عملية الإدماج هذه بأسلوب حزفى لأقصى درجة ممكنة حينما أكل الصليبيون لحوم ضحاياهم المسلمين فى معرة النعمان، وعلى المستوى المجازى من خلال الاستيعاب الأوسع، والأكثر استدامة - أى التهام الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا الإسلامية وهضمها.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الاختلاس الفكرى كان قد بدأ بهدوء قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون كوسيلة لتميز المسيحية الغربية عن منافستها البيزنطية، فإن السرقة إلى حد «الالتهام الثقافى» للحم الأخر لم تحدث حتى بداية الحروب الصليبية. وبحلول القرن الثالث عشر، كان توماس الإقوينى وغيره من (المفكرين الغربيين) يقومون بوقاحة بسرقة أعمال الفلاسفة من أمثال ابن رشد بزعم أنهم «يفضحون زيفها».

وحقا، فإن منظرى الإسلاموفوبيا الذين يقوم شيهى بتفكيك مزاعمهم فى هذا الكتاب يتجاهلون عن عمد، أو ينكرون عن مكر وخداع، الإرث الإسلامى فى «الحضارة الغربية»، هذا على الرغم من الاعتراف واسع النطاق بما تدين به جميع المباحث الفكرية تقريبا للعلوم والدراسات الاجتماعية لذلك الموروث. وبالمثل، فقد تم التهام معظم المعرفة الرياضية والعلمية والمعمارية والهندسية التى أدت إلى ظهور ما يسمى بعصر النهضة [الميلاد الجديد Renaissance] فى الغرب، التهامها من الإسلام وهضمها. وفيما ظل المؤرخون الغربيون ينسبون المنهج الجبرى (علم الجبر) إلى عالم الرياضيات الإغريقى ديوفانتوس الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى، فإن ابن موسى الخوارزمى هو الذى توصل إليه عام ٨٣٠م. وعلى مدى الأربعمائة عام التالية شهد ذلك المنهج تطورا على أيدي خلفاء الخوارزمي، بل إنه، وحتى القرن

التاسع عشر، فإن كثيرا من «الأفكار اللامعة» التي أُدخلت على هذا المنهج ونسبت إلى الرياضيين الغربيين، كانت مجرد إعادة صياغة للأساليب التي أتقنها العلماء المسلمون.

التَّهَمَ الغربُ إسهامات المسلمين في التفاضل والتكامل وعلم المثلثات والفلك والهندسة الملائكية، وابتلعها كاملة، ثم ادعى منذ آنذاك أنها من اكتشافاته. بل إنه حتى في مجالات الدراسات المتقدمة المعقدة مثل نظرية الأرقام، فقد كان ابن هيثم، عالم الرياضيات العربي يطبق عام ١٠٠٠م ما أصبح اليوم يشار إليه على أنه «نظرية ويلسون» نسبة إلى جون ويلسون الإنجليزي الذي يُزعم أنه اكتشفها عام ١٧٧٠. كان أول من توصل للنظام العشري للكسور هو عالم الرياضيات الفارسي أبو الحسن الإقليدسي في أواخر القرن العاشر، ثم قام خليفته جامشيد الكاشي بنقله إلى الغرب بعد ما يربو على القرون الأربعة، فيما كان الرياضى المغربى أبوبكر الحصار هو من اخترع أسلوب ترميز الكسور بوضع البسط أعلى والمقام أسفل والفصل بينهما بخط أفقي، وكان ذلك في القرن الثانى عشر الميلادى.

كان العالم الفارسي الموسوى نصير الدين الطوسى هو من طور علم الفلك الإسلامى بدرجة كبيرة، لم يكتف بأن قدم البراهين على أخطاء بطليموس وما نجم عنها من حسابات مغلوطة، بل إنه، أتى فى عام ١٢٤٧ بنظرية تعرف باسم «مزوجة الطوسى Tos,s Double» والتي تكاد تتطابق مع النظرية التى نشرها كوبرنيكوس فى عام ١٥٤٣. بل إن العالم ولى هارتنر، اكتشف أن برهان كوبرنيكوس الرياضى على الفرضية كان هو ذاته الذى توصل إليه ابن الطوسى عام ١٢٦١ وأنه من الجلى أن كوبرنيكوس قد نسخه بدون أن ينسبه إلى صاحبه الأصلي. كان أحد أسباب تقدم المسلمين فى الرياضيات واستبقاهم «الغرب» بكثير هو الأرقام العربية التى استخدموها - بما فى هذا الصفر الذى لم يكن معروفا فى أوربا حتى القرن الحادى عشر ولم يستخدم على نطاق واسع حتى القرن السادس عشر- والتي سهلت إجراء

العمليات الحسابية المعقدة وهو أمر كان من المستحيل إنجازه باستخدام الأرقام الرومانية. علاوة على ذلك، فإنه، وبدون الاستناد إلى الثورة العلمية التي أنجزها المسلمون لكان من المستحيل على الغرب تحقيق موروته العلمي لأسباب أخرى كثيرة. بل في واقع الأمر، فمن الممكن إرجاع أصول ما يعرف بالنهج العلمي ذاته إلى خطوات البرهان التي طورها ابن هثيم وابن زكريا الرازي حوالي عام ١٠٠٠م.

كان العلماء والأطباء المسلمون هم أيضا من اكتشفوا الأمراض المعدية، حيث تعرّف ابن سينا على مرض السل كأحد أخطر تلك الأمراض وأكثرها شيوعا في القرن الحادى عشر وطرح أسلوب الحجر الصحى لمنع انتشاره. ثم توصل، عن طريق الاستقراء إلى مفهوم علم الأوبئة بما فى هذا تحليل عوامل المخاطرة وفكرة التناثر [مجموعة الأعراض التي تظهر فى وقت واحد] واستخدامها فى أغراض التشخيص. ألف ابن سينا كتابه «القانون فى الطب» المكون من أربعة عشر جزءا وانتهى من إنجازه عام ١٠٢٥. كان مؤلفه هذا شاملا متقدما بدرجة أنه ظل أحد دعائم تدريس الطب فى الجامعات الغربية حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، فيما أن كثيرا من التطبيقات والممارسات التي أوردها فى «القانون فى الطب» - مثل التجارب [الاختبارات الإكلينيكية]، التجارب العشوائية المتحكم بها، اختبارات الفاعلية - مازال معمولا بها حتى يومنا هذا.

لم تكن منطقة جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا مصدر كثير من مفاهيم الغرب الطبية المفتاح فقط، بما فى هذا نظرية الجراثيم، بل كانت أيضا مصدر مؤسساته الطبية. كان أول مستشفى عام [ببمارستان] هو ذلك الذى أقامه هارون الرازي ببغداد عام ٨٠٥م، ومن هناك انتشرت المستشفيات سريعا فى أنحاء العالم الإسلامى، كذلك أيضا، فقد أقيمت أولى الصيدليات ببغداد فى مطلع القرن العاشر الميلادى، حيث اشتراط على الأطباء والصيدالة، بداية من عام ٩٢١م، تلقى التدريس الرسمى، والحصول على الترخيصات المطلوبة كى يتعاطوا مع حوالى ٧٦٠ نوعا من النباتات

الطبية والعقاقير المشتقة منها، بما فى هذا مواد التخدير التى تستخدم فى العمليات،  
والتي صنّفها ابن سينا فى مؤلفه «القانون فى الطب».

ومع إلام الطب الإسلامى بالتخدير، أضحى إجراء العمليات الجراحية - بما فى  
هذا أشكال من جراحة الأعصاب - وفهم تشريح الجسد البشرى أكثر تقدما بكثير  
من أى شيء كان بمقدور الغرب فهمه واستيعابه. مثلا، كانت الأساليب التى وصفها  
الطبيب الأندلسى أبوالقاسم الزهراوى فى «المقالة فى عمل اليد على فن الجراحة»  
تُطبّق كاملة فى أوربا لحوالى ستمائة عام. علاوة على ذلك، وبما أن الإنجازات  
الدوائية فى العالم الإسلامى كانت تستند إلى إلام تام بعلم النبات والكيمياء، فقد  
شكل انتحال المعرفة الطبية الإسلامية وتملكها من قبل الغرب الأساس الذى قامت  
عليه «العلوم الغربية» فى تلك المجالات.

بل إن الفكر الإسلامى فى مجال الفيزياء استبّق بقرون عديدة الفيزياء الأوروبية  
التي يقال إنها العلم الأوربى بامتياز. بحلول القرن الثامن الميلادى، كان جعفر بن  
الصدّيق العالم الموسوعى المولود بالمدينة المنورة قد قام بتفنيده فكرة أرسطو عن  
«العناصر الأربعة» [الماء والهواء، والنار والتراب]، بل من المرجح أيضا أنه قد أتى  
بنظرية أولية عن جزيئات المادة. وفى القرن التاسع، استبّق عالم الفلك جعفر بن  
موسى بن شكير قانون نيوتن للجاذبية الكونية بنظرية نقحها ابن الهيثم فى القرن  
الحادى عشر وقام العالم الموسوعى أبوالفتح الخزنى بتوحيد أجزائها فى القرن  
الثانى عشر. أيضا، تم استباق قوانين الحركة لنيوتن التى عبر عنها لأول مرة عام  
١٦٨٧، فى أعمال ابن الهيثم وابن سينا والعالم الأندلسى الموسوعى ابن باجة،  
والعالم العربى اليهودى أبوحمزة البغدادى الذى عاش فى القرن الثانى عشر. من  
الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من نظرية نيوتن، فإن مفهوم ابن سينا العام عن كميّة  
التحرك مازال يطبق فى مجال الفيزياء.

من خلال الإنجازات التكنولوجية التى تمت فى العالم الإسلامى على مدى مئات

من السنين، تسربت إلى الغرب التوجهات العقلانية الجديدة. كان من المحال حدوث «النهضة الغربية» بدون الأسس التي وضعها العالم الإسلامي للعلوم المعمارية التطبيقية والهندسة. نُقلت الأقواس مستدقة الرأس وكذلك أساليب إقامة الأسقف المضلعة والمنحدرة، الأساسية في المعمار القوطي وما تلاه من معمار باروكي، نقلت وانتُجَت مباشرة من النماذج الإسلامية في بلاد المشرق العربي [الشام] والأناضول وصقلية وأيبيريا. وينفس الأسلوب، كانت التقنيات الإسلامية التي ابتكرها المسلمون، وبخاصة تلك المتعلقة بنقل المياه، وضخها، وخزنها، واستخداماتها في الري، ومعها أنواع مختلفة من المحاصيل التي طورها علماء الزراعة المسلمون، كانت هي سبب ما أحرزه الغرب من تقدم زراعي قبل القرن السادس عشر.

وأخيراً، هناك ما يتعلق بالتكنولوجيا. مثلاً عُرفت ساعات الحائط في بغداد منذ عام ٧٥٠م، كما أنه كان من المحال إبداع النظارات بدون الفهم المصقول والمتقدم لعلم البصريات الذي وفرته قرون من أبحاث المسلمين في هذا المجال. شاع استخدام ألواح الزجاج، والزجاج الملون على نطاق واسع في المناطق الإسلامية قبل أول ظهور لها في أوروبا بوقت طويل جداً. في عام ١٠٠م اخترع تساي لون الورق في الصين، وفي عام ٨٣٠م، كان يصنَعُ بكميات كبيرة في بغداد. وبالمثل، كان أول ظهور لآلة الطباعة في الصين حوالي عام ٦٠٠م فيما اخترع بي شنج وليس رجل الطباعة الألماني جوهان جوتنبرج الأحرف المتحركة عام ١٠٤١. استوعب المسلمون هذه الاختراعات وطوروها، وحصل عليها الغرب من خلالهم.

ينطبق الأمر ذاته على المدافع، والبارود الذي بدونه لم تكن ثمة جدوى للمدافع والبنادق. وعلى الرغم من أن الغرب بذل ما في استطاعته لينسب اختراع البارود إلى روجر بايكون في القرن الثالث عشر، فقد كان الصينيون هم من اخترعوه قبل ذلك بخمسمائة عام وأخذهم المسلمون حوالي عام ١٢٤٠. ومع أخذ هذا التسلسل التاريخي في الاعتبار، فالمرجح أن الصينيين أيضاً اخترعوا المدافع حيث يرجع تاريخ

أول نموذج لها ظل موجودا إلى عام ١٢٨٨. من المحتمل أن تكون جيوش المسلمين والمخترعين منهم قد طوروا مثل تلك الأسلحة في وقت سابق على هذا التاريخ إذ إن أسقف ليون ذكر استخدام قوات المسلمين لهذه الأسلحة في إشبيلية عام ١٢٤٨، وكذلك ذكر ابن الحسن استخدامها في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠. ظهرت أول «صورة» للبندقية في الغرب عام ١٣٢٦، وأول استخدام معروف لدينا للمدفع عام ١٣٤٦ في معركة سرسي Crécy. والأرجح أن أول مدفع «غربي» كان قد تم شراؤه من مصدر إسلامي.

نجح الغرب في تطوير البارود المعتمَر المحفوظ ذي الفاعلية الهائلة من خلال خلطه بالملح، ومن ثم، غدا يمتلك ميزة حاسمة على أعدائه. بيد أنه بدون تقنية تنقية الملح الصخري التي كان الكيميائيون المسلمون قد اكتشفوها قبل ذلك بسنوات طويلة، ما كان للبارود المحسَّن ليوجد كى يحفظ. وعلى أية حال، فثمة كانت الميزات التي حصل عليها الغرب من حفظ البارود وما رافق ذلك من تقدم في صناعة الأسلحة، فإنها لم تكن كافية للتغلب على قوة العثمانيين الذين سدوا عليه طرق الحصول مباشرة على سلع الصين وهندوستان [الهند] والتريخ منهما. ظل هذا هو الحال حتى بعد هجمات المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر - والذين تحالف العالم المسيحي الغربي معهم - والتي دمرت، تكرارا، بغداد ومراكز الحضارة الإسلامية المشرقية الأخرى وتركتها خرابا.

تمكنت القوة العثمانية، مؤقتا، من تعويق رغبة القوى الأوروبية المنذرة للتغلغل الأعمق في آسيا. من ثم، أُجبر الغرب على تغيير وجهة محاولته. أثناء السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، حاولت البرتغال الالتفاف حول «العائق الإسلامي» بالإبحار جنوبا بمحاذاة الساحل الإفريقي، ثم شرقا عبر المحيط الهندي. بيد أنه لم يكن حتى عام ١٤٩٨ أن تمكن فاسكودا جاما من الوصول إلى كالكوته عن طريق رأس الرجاء الصالح. لكن، في تلك الأثناء كان بحار آخر يدعى كريستوبال كولون

(كولومبوس) قد فتح آفاق «عالم جديد» تماما فيما كان يحاول الوصول إلى «الشرق الأقصى» بالإبحار غربا. أوجدت المغامرتان طرقا يتفدّ الغرب من خلالها أسلوبيه لافتراس النوع البشرى ونهبه بمدى لم يسبق لأحد تخيله. لم يقتصر الأمر على أراضى قارتين بأكملها- ثلاث قارات إذا أضفنا إفريقيا - غدت متاحة لهم فجأة كى يستولوا عليها، بل الأهم فى تلك اللحظة، كانت إتاحة موارد تلك القارات: الموارد البشرية والمعدنية والزراعية.

أدت النتائج إلى تحول تام وحقيقي. كان تدفق المعادن النفيسة إلى إيبيريا من القارات «الأمريكية»، ذلك الاسم الذى أطلقه الغرب على نصف الكرة الأرضية الذى اكتشفه كولومبوس، كافيا لضمان قيام «الثورة الصناعية» فيما بعد. ولم تكن الأرباح التى اكتسبتها إنجلترا وفرنسا من خلال الاتجار فى العبيد والسكر، ثم القطن فيما بعد فى نهاية القرن الثامن عشر، لم تكن بأقل من الثروة التى تدفقت على أيبيريا. من هنا يتضح لنا أصل الرأسمالية، بالمعنى «الحديث» للمصطلح، وأيضا، الأساس الذى كان للغرب أن يطور عليه تكنولوجيات معينة وينتجها على نطاق واسع وبكميات هائلة - بخاصة فى مجالات الأسلحة والنقل والاتصالات - التى مكنت حفنة من بلدان غرب أوروبا من توسيع المناطق التى تهيمن عليها أثناء القرن التاسع عشر بدرجة أنه، وفى مطلع القرن العشرين، كان لهم ولذرياتهم ممن استوطنوا أمريكا الشمالية أن يزعموا حقوق ملكية معظم سطح الكرة الأرضية.

جوهرياً، عكس مسار التوسع الغربى بأكمله، والذى كان قد بدأ فى السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، علّة جوهريّة نفسية غير سوية آخذة فى النضج والتى انبثقت عنها هوية «الغرب» بدرجة أن تم إسقاط مفهوم مجرد «الأخرين» من الأدمية، إسقاطه ليشملهم جميعا فى كل مكان، مفهوم مضى ينمو ويزداد زخما وخبثا وسُميّة. لم يقتصر الأمر على ممارسة الاتهام الثقافى/ الفكرى للنوع الذى مارسه الغرب ضد الإسلام كما هو ثابت فى كل خطوة له على الطريق، لكن ذلك الاتهام تم توسيع

مداه فيزيقيا وممارسته ضد السكان الذين وُضِعوا مؤخرًا في مصنف «الآخر» بمدى واسع النطاق كاد يطغى على المذابح التي ارتكبت في معرة النعمان والقدس في الحملة الصليبية الأولى.

بحلول عام ١٨٣٠ كان قد تم نقل عشرين مليون إفريقي أسود من ساحل إفريقيا الغربية للاتجار بهم عبيدا، توفى منهم مليونان على الأقل أثناء شحنهم من إفريقيا إلى القارات الأمريكية. وعلى الرغم من ذلك، تُوِّلى الحملات التي يطلقها دعاة الإسلاموفوبيا من الليبراليين والمحافظين الجدد اهتماما أكبر كثيرا لتجّار العبيد العرب في الجنوب الإفريقي<sup>(١)</sup> من الاهتمام الذي يولونه لآلاف المسلمين الأفارقة الذين استُرِقوا وتم نقلهم مصفدين إلى القارات الأمريكية. لم يتوان تجار العبيد الغربيون عن أعمال القتل، بأسلوب مباشر وغير مباشر، أثناء الغارات التي كانوا يشنونها باستمرار لحصد السلع التجارية البشرية من وسط إفريقيا. وهنا، يجب إضافة الأعداد المهولة من الأفارقة الذين قتلوا في موجات المذابح التي لازمت اجتياح الداخل الإفريقي في السنوات النهائية للقرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

يتضح هول الكارثة البشرية التي حاقت بإفريقيا وأعداد من فقدوا من سكانها من حقيقة أنه ما بين عامي ١٦٥٠ و١٩٠٠ ارتفع عدد سكان أوروبا من ١٠٤ مليون نسمة ليصبح ٤٢٣ مليون نسمة فيما ارتفع عدد سكان إفريقيا من ١٠٠ مليون نسمة إلى ١٢٠ مليون فقط. أما في القارات الأمريكية فكان التأثير أعظم كثيرا. قُدِّر عدد سكان القارات الأمريكية ككل في اليوم الذي رسا كولومبوس على شواطئها بمائة وخمسة وأربعين مليون نسمة، وفي غضون قرنين كان هذا العدد قد تقلص بنسبة حوالي ٩٥٪.

تتميز صراع «الغرب» من أجل الحفاظ على وضع هيمنته الكوكبية من خلال

(١) كان هؤلاء العبيد يباعون للمساعدة في الأعمال المنزلية في غالبية الأحوال وكانوا يلقون معاملة أفضل، ويعتق الكثيرون منهم في نهاية المطاف. لا يعني هذا بأي حال تبرير تلك الممارسات من قبل التجار العرب، (الترجمة)

أسلوب الاستعمار «الكلاسيكي» طوال نصف القرن الذي بدأ من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، تميز بالأسلوب الضارى فى القضاء على السكان «الآخرين» والتهامهم. ابتداء من الفترة ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩ كان البريطانيون رواد استخدام أساليب القمع الوحشية ضد «الثورة الفلسطينية»، وهى ذات الأساليب التى استخدمها الفرنسيون طوال العقود التالية فى الهند الصينية والجزائر، واستخدمتها الولايات المتحدة فيما بعد فى فيتنام. فقد حوالى مليون هندي حياتهم فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٤٨ من خلال محاولات بريطانيا التحكم فى مغبات تخلص الهند من الاستعمار. نجم عن محاولات الهولنديين إحباط استقلال إندونيسيا فيما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٤٩ حوالى ١٠٠٠٠٠ قتيل. أدت محاولات بلجيكا لإعادة تثبيت هيمنتها على إقليم كاتانجا الغنى بالمعادن الثمينة بالكونغو التى كانت قد نالت استقلالها مؤخرا فى عام ١٩٦٠ إلى سقوط أعداد لا تحصى من القتلى تقدر بمليون أو أكثر. كانت تلك هى حشرجات الموت لما وصفه فرانترز قانون بأنه «الاستعمار المحتضر».

فى واقع الأمر، فقد لازمت المفارقة الرهيبة نجاح حركة العالم الثالث للتححرر من الاستعمار الذى كان قد أنجز بنهاية السبعينيات. وبدون التفاضى عن التضحيات الاستثنائية التى بذلتها الشعوب المستعمرة أثناء نضالاتها من أجل التححرر، أو الأثر الموهن لتلك النضالات على قدرة المستعمرين للحفاظ على النظام الإمبريالى الذى كان قائما، فلا بد من التاكيد على أن ما أنهك الإمبراطوريات وأخرج أحشائها كان هو تطبيق أدولف هتلر للمبادئ الكونىالية الخالصة على «القارة» [الأوربية] ذاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. تركت الأوضاع التى فرضت هكذا - من النوع الذى كان «الأخرون» المستعمرون يعانونه بشكل روتينى لعدة قرون غالبا - تركت أوروبا الغربية منهكة منسحقة بعد مجرد خمس سنوات بدرجة أنها لم يعد لديها القوة لإخضاع «الآخرين» بأسلوبها المعهود.

من ثم كان «عصر التحول» بعد الحرب، وهى فترة ميزها ليس فقط التحول المفترض من الواقع الكونىالى إلى ما «بعد الكونىالى» بل أيضا انتقال مركز «الغرب» ذاته

من العالم القديم إلى العالم الجديد. واكب هذا الانتقال الأخير إعادة ترتيب سريعة للآليات التي من خلالها يُبقى الغرب هيمنته على العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وكانت الولايات المتحدة هي من هندست عملية إعادة الترتيب تلك، بشكل رئيسي. استغل هذا النهج الجديد الحضيف، والذي سرعان ما أسماه كوامي نكروما وغيره من دعاة التحرير في العالم الثالث، «الكلونيالية الجديدة neocolonialism»، استغل حالة البؤس والإملاق ذاتها والتي كانت تعانيها المستعمرات السابقة نتيجة استيلاء الغرب المستدام على ثرواتها ونهبها لها، استغلها وسيلة أساسية كي «تلتزم [تلك البلدان] مكانها». تم إنشاء مؤسسات جديدة كاملة، كان الأبرز بينها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، اللذان أقيما من أجل إقراضها الأموال التي حُصدت نتيجة استغلال تلك البلدان، بذريعة تمكينها من التغلب على أوضاع «التخلف» الحادة التي تعاني منها.

ولكى تصبح «مؤهلة» لتلقى مثل تلك «القروض التنموية» طُلب من حكومات العالم الثالث في البداية أن تبرهن على «التزامها باقتصاد السوق الحر»، وهو أمر يتوقف بأسلوب ثابت على تفعيلها لسياسات داخلية تمنح الأفضلية للأرباح التي تجنيها الكوربوريشنات الغربية من المشاريع التي تنفذها داخل تلك البلدان، وترجعها على رفاه سكانها وسلامتهم. من ثم، ظلت الثروة التي يسلبها الغرب من العالم الثالث بنفس المعدلات التي كانت سائدة في ظل الكلونيالية في شكلها الكلاسيكي، بل وتفوقها في بعض الحالات. عمل هذا ومعها نفقات خدمة القروض التي ترتفع باستمرار، على ترك كثير من المستعمرات السابقة أشد فقرا مما كانته قبل حصولها على الاستقلال.

تضمينات مثل تلك الترتيبات يستعصى على المبالغة. في سبعينيات القرن العشرين، أوضحت التقديرات أن حوالي ٢,٢٥ مليار نسمة من الأمم «ذات البشرية السمراء»، يحاولون يائسين العيش على دخل سنوي للفرد يقل عن ٢٠٠ دولار سنويا، وأن حوالي ٨٠٠ مليون من هؤلاء يعيشون على أقل من ١٠٠ دولار سنويا.

بمنتصف الثمانينيات كان الوضع قد وصل لنقطة «الإبادة الجماعية الصامتة» حيث ذكرت تقارير منظمة الصحة العالمية أن ثمة ١١ مليون طفل فى العالم الثالث، فى المتوسط، يموتون سنويا نتيجة سوء التغذية و/أو عدم وجود أدوية لا تكلف الجرعة منها أكثر من عدة بنسات. فى عام ١٩٩٠، وفقا لبيانات البنك الدولي، بلغت الأرباح المتدفقة من «البلدان النامية» إلى الغرب مستويات قياسية، فيما ذكرت تقارير واكبت تلك البيانات أن نصيب البلدان الواحد وأربعين الأكثر فقرا من الثروة الكوكبية قد انخفض ليصبح ١٨٪ بعد أن كان ٢٣٪ فى العقد السابق. وفقا لصندوق النقد الدولي، فقد زاد تدهور الأوضاع فى تلك البلدان الواحد وأربعين بحلول عام ٢٠٠٩. يكفى أن نقول إن ما وصفته منظمة التجارة العالمية على أنه إبادة جماعية «صامتة» لم تكن أبدا صامتة بالنسبة للسكان الذين كان أطفالهم - وكبارهم فى واقع الأمر - يموتون، وما زالوا يموتون بالملايين. كما أن أسباب ذلك لم تكن أبدا خفية عليهم (ليس من الصعوبة بالطلق أن يتبينوا أن حياتهم وحياة أعزائهم قد فقدت قيمتها بدرجة أن أصبحت لا تستحق الحفاظ عليها بأكثر مما تستحقه أوراق التواليت). ونظير ذلك فقد سعت تلك الشعوب باستدامة، وبأسلوب أو آخر، إلى الإطاحة بأنظمتهم التى أقامتها الولايات المتحدة والتى ظل سبب وجودها ذاته، إلى جانب إثراء أنفسهم، هو ضمان «الحد الأقصى من الأرباح لاستثمارات» الكوربوريشنات الغربية على حساب شعوب كل منها مباشرة.

دفع هذا بدوره، ومنذ ستينيات القرن العشرين، الولايات المتحدة إلى الحفاظ على استقرار «بيئات البيزنس فى الخارج» بأن أمدت الأنظمة العميلة فى العالم الثالث بتدريبات عسكرية/بوليسية، وبقوائم من الأسلحة تتزايد كميتها باستمرار، وبالذخائر، وبتكنولوجيا الاتصالات/بيانات التخزين/والرقابة، وغير ذلك من التجهيزات التى لا تستخدم سوى فى قمع رغبات الشعوب فى تغيير الأوضاع القائمة. ضاعف النظام الناجم عن «فاشية العالم الثالث» التى ترعاها الولايات المتحدة المعاناة التى ظلت

شعوب المستعمرات السابقة تخضع لها، بأن جعلت من التعذيب والعنف القاتل الذي يمارس على نطاق جماهيري واسع أحيانا، شأننا روتينيا. أثناء ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين تم قتل ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ شخص، أى حوالي ٨٥٪ من سكان جواتيمالا الأصليين من قبائل الملايا على أيدي الجيش والشرطة الجواتيمالية فى مساعاهم لقمع المقاومة الشعبية، لسياسات استخدام الأراضى الحكومية. وهذا مثال واحد، ويوجد الكثير غيره.

وبنظرة ارتجاعية، فإن الأبعاد العنصرية والشوئينية ثقافياً للنظام العالمى الجديد الذى بدأته الولايات المتحدة وقادته أثناء فترة ما بعد الحرب يبدو جلياً لدرجة الشفافية. فعلى حين لم يكن إصلاح مغبات الحرب فى العالم الثالث وتعويض بلدانه عنها جزءاً من خطتها لهذا الجزء من العالم بعد رحيل الاستعمار الأوروبى عنه، فإن الولايات المتحدة لم تبخل بالوقت أو الأموال كى تسهل عملية إعادة إعمار بلدان أوربا الغربية بما فيها ألمانيا واستردادها لقدراتها الصناعية بعد ما ألحقته الحرب بها. وهكذا فعلت أيضاً بالنسبة للبنية الأساسية الإنتاجية لليابان، ذلك البلد الذى كان قد تغربن تماما بحلول ثلاثينيات القرن العشرين بدرجة أن هتلر دخل فى تحالفات معه. تم تصميم تلك الخطوات والإجراءات وقصد بها تحديدا توليد النتائج التى نجمت عنها - أى تمكين الغرب من أن يتغذى بكفاءة تفوق أى وقت مضى على لحوم الكتل البشرية الكوكبية لـ «الأخرين» الذين جُردوا من آدميتهم بشكل كلى - تلك النتائج التى كانت واضحة منذ المستهل.

وفى واقع الأمر، فقد غدا الترتيب ثلاثى المحور للقوة الكوكبية التى أنشأتها الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٦٥ وسيطا مثاليا يمكن من خلاله تولى أمر «التخطيط النخبوى لإدارة العالم»، وهو أمر انعكس جلياً فى تشكيل اللجنة الثلاثية فى عام ١٩٧٢، تلك اللجنة التى وصفت نفسها بأنها «نظير للقطاع الخاص لمجلس العلاقات الخارجية الحكومى»، زعمت أن مهمتها هى طرح توصيات سياسية

تؤدي إلى «تطور سلس وسلمى للنظام الكوكبي». وفيما يبدو هذا الهدف نبيلًا، فقد تم الكشف عن معناه الحقيقي بأسلوب فاضح في إحدى أوائل الدراسات التي أجرتها اللجنة ونُشرت عام ١٩٧٥ حيث انتهت إلى أن «الديموقراطية المفرطة» ومعها «تدخل الحكومات القومية في أسعار صرف العملات الدولية» تشكل العوائق الرئيسية لـ «التطور السلس» للنظام. أى أن الحد من هاتين المشكلتين معا - أو القضاء عليهما - سيجعل النظام أكثر «سلمية» في نهاية المطاف.

إن غض النظر عن هذا بذريعة أنه لغو يمينى نمطى سيكون خطأ كبيرا. فإن بين أعضاء اللجنة ثلاثية الأطراف كثيرا من صناع السياسة النافذين في العالم الرأسمالي، هذا علاوة على أنه قد تم تنفيذ التوصيات المضمرة في تقرير اللجنة لعام ١٩٧٥. تم تقليص «تدخل» الحكومات في التبادلات الدولية وأسعار العملات من خلال الاتفاقيات، مثل اتفاقية التجارة لدول شمال أمريكا NAFTA، كما أنه يجرى الآن التوصل إلى ترتيبات أشمل في اجتماعات منظمة التجارة العالمية التي تفرض حولها الحراسة المشددة. أما بخصوص تقليص «الديموقراطية المفرطة»، فإن الكثير مما ذكرناه عن رعاية الولايات المتحدة للفاشية في العالم الثالث يكفى للدلالة على هذا. وعلى الرغم من ذلك، فإننا ندعو من مازالت الشكوك تراوهم لمناقشة الموضوع مع أى شخص فلسطينى أو للاستماع إلى موميا أبوجمال التي كتبت تمهيدا لهذا الكتاب وهي من مواطنى الولايات المتحدة الملونين.

وبإيجاز، فإن الواقع الملموس هو أن القوة الساحقة تستخدم بتزايد ضد أى أحد، ويشمل هذا شعوبا بأكملها، يقوم بمقاومة ذات معنى، لما يقصد به أن يكون الترسخ النهائى للهيمنة الغربية. ولأسباب مباشرة، وأيضا جد معقدة بدرجة عدم استطاعتنا تفصيلها هنا، فإنه، وعلى مدى العشرين عاما الأخيرة، فإن أقوى التحديات لهذه الطموحات، ظلت تضطلع به الجماهير الإسلامية، وأحيانا أيضا بعض الحكومات الإسلامية. من ثم، فقد اكتملت الدائرة مرة أخرى، حيث يقف الإسلام مرة أخرى

حائلا بين الغرب وبين تحقيق فنتازياته المرضية التي منها وكِد إحساسه بذاته والتي قام هذا الحس على أساسها دائما. ومرة أخرى، لابد من تقديم الأمثولات والعبر: وفاة أكثر من نصف مليون عراقي في التسعينيات نتيجة للعقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة، وذلك كي يستوعب قادة ذلك البلد خطورة مقولة جورج إيتش. دبليو بوش الماثورة «إن ما نقوله ينفذ». ومرة أخرى يتم «تبرير» هذه البشاعات من خلال حملة متناغمة للتشهير بالضحايا وتشويه سمعتهم.

هذا إذن هو سياق ظاهرة الإسلاموفوبيا التي بُعثت من جديد والتي يُخضعها ستيفن شيهي للتحليل الدقيق الصارم في الصفحات التالية. ويعمله هذا، فهو يقدم خدمة متسامية، ليس فقط للأسلوب الذي به يلقي الضوء على الظاهرة التي يصفها مباشرة، بل أيضا بما أن الإسلاموفوبيا تتضمن القالب الأصلي الذي منه اكتسبت تنويعات العنصرية الغربية التي تلت شكلها، ومن ثم، فهو يلقي الضوء أيضا على مدى أوسع وأكثر عمقا من الظواهر المرضية المختلفة. إنه فقط من خلال نزع الأغلفة عن فحوى عقلية السمو/ الأروبي - أو عن عدم وجود فحوى لها - نستطيع أن نُحْكَم القبضة عليها ونستوعب مكنوناتها وبهذا، فقد نستطيع أن نعثر على وسيلة لشفاء ذلك المرض الذي تُشكّل الإسلاموفوبيا أهم أعراضه، ومن ثم يمكن لـ «الفكرة الجيدة» التي قال بها غاندى أن تتحقق أخيراً، وإن لم نستطع هذا، فإن جدوى كتاب الإسلاموفوبيا ستكمن في الآراء التحليلية المتبصرة وتساعدنا جميعا على فهم أفضل لما علينا مواجهته. وفي كلتا الحالتين، فإن قيمة هذا الكتاب لا تقدر، من ثم ندين لستيفن شيهي بأعمق درجات الشكر والإعجاب لشجاعته باضطلاع به بكتابته.

وارد تشرشل

## «نحن الآن إمبراطورية» وحينما نتخذ الأفعال والإجراءات، فإننا نخلق الواقع الخاص بنا».

أحد كبار مساعدي بوش، لم يذكر اسمه

دخول أحاديث الكراهية إلى التيار الأيريكس السائد:

قال الرئيس جورج دبليو. بوش لقائد القيادة الوسطى الأمريكية الجديد الأدميرال ويليام فالون والذي كان قد تجرأ لتوه قائلاً إن الأمريكيين كانوا بحاجة لإيجاد سبيل للتعاطى مع الإيرانيين والدخول معهم فى حوار، قال له «إن هؤلاء الناس حمقى حقراء assholes». نَفَعَ هذا التعليق، الذى انتشر بصخب على نطاق واسع، إلى العفن ما كان موضع شك من الكثيرين، أى أن البغض العميق الذى يُكَنِّه الرئيس للإيرانيين كان وراء استراتيجيته الإيرانية/ العراقية وهى استراتيجية لم «تقدم أى نهج» واقعى للتعاطى مع إيران أو مع المنطقة.

وبالتقابل، كان فالون يلقى الثناء بصفته القائد الذي كان يتصدى لخطاب الحرب الذي تبناه البيت الأبيض والذي كان دافعه الرغبة في الاستيلاء على النفط والغاز، حيث رفض فالون الخيار العسكري ضد طهران. وفي حوار له، بعد ذلك، مع قناة الجزيرة، انتقد فالون علناً قرع طبول الحرب المستدام الصادر عن واشنطن، وأضاف قائلاً إن ذلك «غير مفيد». كان عليه الاستقالة، في النهاية، حينما أصبح اختلافه في الرأي مع الإدارة علنياً بعد حوار له مع مجلة إسكواير. ونظراً لوصف الإعلام له بالبسالة لمعارضته الضغط من أجل الحرب وتبني تلك الصورة له، فقد تم تجاهل الكُتبية التي كان قد أطلقها على الإيرانيين، حيث كان قد أسماهم في حوارهِ مع مجلة إسكواير «تملاً» سيتم «سحقهم في الوقت المناسب».

في أعقاب ١١/٩/٢٠٠١، تم نسف السقف الذي يمكن تقبله لحديث الكراهية ضد المسلمين، وضد العرب بخاصة. غدا بإمكان المحرضين متوسطي التطرف من

أمثال أن كولتر أن تُصرّح في الوسائط المطبوعة ما كان لا بد أن يمنعه أي رئيس تحرير مسئول أو أي حس بالكياسة، حيث كتبت قائلة بعد يومين من أحداث ٩/١١ «يجب أن نجتاح بلادهم ونقتل قادتهم ونحوكهم إلى المسيحية. لقد قصفنا المدن الألمانية وسويتها بالأرض، وقتلنا المدنيين. كانت تلك حرباً. وهذه هي حرب أيضاً» لم يتراجع عنف اللغة، بل تصاعد بما يتناسب مع التصاعد المأساوي في عنف سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومثلما أُسمى بوش الإيرانيين «assholes»، وسمع رئيس قوات الولايات المتحدة بالخارج يسميهم «نملاً» فقد قال الجنرال جيمس ماتيس بالمارينز، وقائد قيادة القوات المشتركة، بعد ذلك بوضع سنوات «أذهبوا إلى الداخل الأفغانى وستجدون رجالاً يصفعون النساء لعدم ارتدائهن الحجاب. تعرفون أن مثل هؤلاء ليسوا رجالاً من ثم، فإنها لتسلبية عظيمة أن تطلقوا النار عليهم». واكب تبرير قتل المسلمين بالخارج وما يرافقه من متعة، وأبل من الأفكار عن الإسلام والمسلمين

لم يكن من المتخيل أن ينطق بها أحد من قبل، عبر عنها التيار السائد الأمريكي الأبيض. منذ ٩/١١، غدا المسلمون والإيرانيون والعرب والإسلام ذاته مواضيع للاندراء والسخرية العلنية على شاشات التلفزيون، وفى البث الإذاعي، والصحافة المطبوعة. نسمع، من الصباح وحتى المساء عن «الخصائص العظيمة الفاضلة لدين الإسلام الغائر فى القدم: قتل النساء على الشرف، ختان الإناث، منع النساء من قيادة السيارات، نعت اليهود بالقردة والخنازير».

وفىما يُسيطن الكثيرون اليمينيين من دعاة الكراهية بعد أن تم تطبيع وأبل أحاديث الكراهية التى يقصفون بها المسلمين وأصبحت ضوضاء بيضاء معتادة تنبعث من البرامج الحوارية بالتلفزيون والإذاعة، تمضى الدوائر الليبرالية تستخدم الأضاليل القائمة على الإسلاموفوبيا، وتنميطاتها وترؤجها بزعم أنها نقىض وجهات نظرهم الخاصة، ولنا فى تعليقات هوارد دين الزعيم الديمقراطى الليبرالى على إقامة مسجد بالقرب من موقع هجمات ٩/١١ [Ground Zero] مثال على هذا الخطاب. قال وهو يتحدث إلى راديو WABC إن بناء مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى سيكون إهانة حقيقية لمن فقدوا حياتهم فى ٩/١١/٢٠٠١، ثم مضى قائلاً، بذات الأسلوب الذى يستخدمه الديمقراطيون للتخفيف من عنصريتهم «أعتقد أن إقامة المساجد فى المدن الأمريكية أمر طيب، لأن أعداد المسلمين الأمريكيين تتزايد وأعتقد أن غالبيتهم معتدلون. أمل أن يستطيعوا التأثير على المسلمين فى أنحاء العالم، وذلك لأن الإسلام عاد إلى ما كانه فى القرن الثانى عشر فى بلاد مثل أفغانستان وإيران حيث يقومون برجم الناس حتى الموت، وهذا يمكن إصلاحه، ليس بالضبط على المسلمين وإقصائهم، بل باحتضانهم والعمل على أن يصبحوا مثل غيرهم من الأمريكيين، ومن الأمريكيين الذين تصادف أنهم مسلمون». ليس حديث هوارد دين بالمستغرب أو الجديد. فى الواقع، وكما سيوضح هذا الكتاب، فإن الكثيرين من مختلف المشارب الثقافية والسياسية فى أمريكا، يتشاركون فى الروايات المضللة الناجمة عن الإسلاموفوبيا. تقتضى رؤية هوارد دين استيعاب المسلمين [الأمريكيين]

وإدماجهم فى الثقافة الأمريكية بحيث لا يمثلون تهديدا لهيمنة الولايات المتحدة، أو لتقافة البيض القائمة على الاعتقاد فى سموهم، وتدعو للتأثير على جماعات المسلمين فى جميع أنحاء الكوكب من أجل ضمهم إلى الحضيرة الأمريكية.

وعلى حين أن الليبراليين والتقدميين ظلوا ينقدون الأصولية الدينية المسيحية ويزدرون خطابها، إلا أنهم يرون أن المسلمين يمثلون تهديدا وتحديا كما توضح تعليقات هوارد دين. لا يُعتبر هذا أمرا فريدا فى خطابات الليبراليين والتقدميين التى دائما ما تختص المسلمين [بالنقد والاتهامات]. مثلا، دائما ما نجد فى كتابات ريتشارد دوكينز، العالم الملحد، أو كريستوفر هيتشنز. داعية الحرب الملحد أيضا هجوما على كل الأديان باعتبارها شعوزات لا عقلانية، لكنهما يُوجّهان الاتهامات للإسلام بخاصة لما يزعمان عن نزوعه الاستثنائى لقمع الاختلاف أو الخروج على الإجماع من خلال أعمال العنف، وحظره المتأصل للمساواة الذاتية. بل إن المثقفين والنشطاء التقدميين حينما ينقدون عسكرة الولايات المتحدة وإمبرياليّتها، فهم دائما يستدعون فى خطابهم هذا تصلب الإسلام والمسلمين وتخليقهم بصفتها أسبابا لعدم جدوى إشعال الحروب ضدهم. مثلا، يدعو جوهان جولدتوج، مؤسس «دراسات السلام» والناشط المعادى للحروب منذ زمن طويل، إلى نقلة فى النموذج المعيارى لتفاعل الولايات المتحدة مع العالم - لكنه يستند إلى التعميمات فى دعوته إلى تقويض الإمبراطورية الأمريكية وإلى العدالة الاجتماعية الكوكبية. يعيد تحليله استنساخ تحليلات اليمينيين والنيوليبراليين حيث يذهب إلى أن لدى المسلمين مفهوما مختلفا عن الوقت والمجتمع والتاريخ والسياسة وكذلك علاقة مختلفة بكل تلك الأمور حيث إنهم يتمسكون بعقيدة الدفاع عن الإسلام «ضد الكفار»، كما يُحظر عليهم الإذعان لحكم المسلمين واليهود لأوطانهم. من ثم، فليس ثمة جدوى للحرب على العالم الإسلامى لأن للمسلمين حساً مقتوحاً لا محددأ بالزمان مما يسمح لهم بالقتال ضد «الكفار» إلى ما لا نهاية. بتعبير آخر، فإن أفضل قرار تتخذه الولايات المتحدة هو إنهاء حروبها

مع المسلمين وذلك لأن داخل كل مسلم شخص أصولى سيحارب دون كلل أو ملل ضد هيمنة غير المسلمين على بلادهم.

تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياة الأمريكية. من اليمين إلى اليسار، ومن المتدينين إلى الملحدون. يمكن القول إن بوش وداعميه أشخاص يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا ويعتقدون أن كل مسلم «حقير أحمق» وإرهابي.

ومن الناحية الأخرى نجد أن الديمقراطيين والليبراليين يعمدون بسهولة إلى نشر التلميحات التي تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين وعيادهم للحادثة من أجل تبرير دعمهم لهيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية.

وكما سنرى، فإن مشاعر الإسلاموفوبيا جلية فى قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكى، تنفذها الوسائط الإعلامية ومراكز الأبحاث و«الخبراء» المتفقهون المزعومون، والمخبرون المحليون، والاكاديميون المارقون الأوغاد، واللوبيات، وتنظيمات النشاط. لا يشعر المسلمون فقط بالوابل اليومى لخطاب الكراهية، وأفعال الكراهية من خلال التحليلات والصور المهيمنة المزديرة، التي تجتاح شاشات التليفزيون والوسائط الإعلامية المطبوعة، وحتى لوحات الإعلانات فى الطرق السريعة، بل إنهم أيضا يخضعون للرقابة الحكومية، وتفتنى آثارهم وتحركاتهم فى الشوارع والمساجد والجامعات، وتُرصد تجمعاتهم، وأموالهم وتبرعاتهم الخيرية. علاوة على ذلك، فإن حكومة الولايات المتحدة تتجسس عليهم، وتقمعهم وتقاضيهم. تجسد جميع مناقشات المجتمع المدني والإعلام عن الحرب، وعن العراق وأفغانستان الإسلاموفوبيا. تشكل الإسلاموفوبيا بنية جميع النقاشات حول الحرب على الإرهاب. تذيّل جميع النقاشات حول «إصلاح العلاقات مع العالم الإسلامى» نوازع هوس الإسلاموفوبيا. تغلب على جميع النقاشات حول فلسطين مفاهيم الإسلاموفوبيا، فيما غدت جميع النقاشات حول إيران وقدرتها النووية ودورها الإقليمى تعبيراً عن الإسلاموفوبيا. كما تشكل الكراهية الاستراتيجية المتعمدة للمسلمين والخوف منهم حدود جميع النقاشات حول الهيمنة على النفط والطاقة.

## الإسلاموفوبيا والتشكيل الأيديولوجي للإمبراطورية الأمريكية:

ويعد أن قلنا كل هذا، ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية فى حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة بمثل ما أن الإسلام ذاته ليس أيديولوجيا سياسية أو دوجما منعزلة. لا تملك الإسلاموفوبيا برنامجا سياسيا أو حتى رؤية سياسية، إنها أمر جوهري، مجرد، مستدام، متأصل، وسائد. يذهب هذا الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي. لا يعنى هذا أنها الرؤية الجوهرية لأى حزب سياسي. الأخرى هو أن التشكيل الأيديولوجي تخلقه ثقافة تنشر مجازات، وتحليلات، وعقائد محددة بصفتها حقائق تؤطّر بها السياسات الحكومية والممارسات الاجتماعية. يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا هى تشكيل أيديولوجي جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين، أو الفلاسفة، أو النشطاء، أو إلى أى منفذ إعلامي، أو مجموعة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث، أو حتى قطاع اقتصادى أو صناعى هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعى عن نشر التنميطات الخبيثة المعادية للمسلمين والمعادية للعرب وعن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على الكوكب وتبريرها. منذ اليوم الأول لتوايه الرئاسة، أظهر بوش وإدارته بوقاحة الاحتقار للعرب والمسلمين، وبلا أدنى مواراة. ستوضح الفصول التالية أن إدارتى كلينتون وأوباما تسودهما نماذج الإسلاموفوبيا والإجراءات المؤسّسة عليها والتي تقترن بنظرة إمبريالية أمريكية مماثلة. وفى واقع الأمر، فإننا، منذ ٩/١١ نشهد الإسلاموفوبيا وقد أصبحت تيارا سائدا بأسلوب غير مسبوق. مثلا، كتب روبرت سبنسر، وهو شخص متطرف غريب الأطوار، مقالين طويلين عنصريين خبيثين عن الإسلام أصبحتا ضمن قائمة النيويورك تايمز لأعلى المبيعات، فيما حظى كتاب «العدو الداخلي» المبتذل والمثير للفتن والذي ألفه بروس باور، بترشيح دائرة نقاد الكتب القومية ذات المكانة المرموقة كأفضل كتاب نقد.

وفيما عمل الأكاديميون والنشطاء والمجموعات المحلية، وأيضا الهيئات من أمثال

هيئة «الإنصاف والدقة في التقارير» على ضم المدعين المتأجرين والمثقفين الزائقين إلى التيار السائد، يتبنى هذا الكتاب مسلكاً مختلفاً. فبدلاً من فهم الإسلاموفوبيا بصفتها سلسلة من الأفعال والمعتقدات التي تستهدف المسلمين وتنتج عن سوء فهم نوعي للمسلمين والإسلام، فإنه يكشف أن الإسلاموفوبيا هي ظاهرة أيديولوجية توجد لتعزيز غايات سياسية واقتصادية على مستوى الداخل والخارج. يمكن لنتائج تلك الأيديولوجيا أن تكون سلسلة من الأفعال والإجراءات تضيء حكومة الولايات المتحدة عليها صفةً مؤسسية وتتزاوح بين شن الحروب والتعذيب المبرمج، إلى أعمال الخطف والاحتجاز والإعدام دونما إذن قضائي، إلى المراقبة ونصب الفخاخ والإيقاع بالأشخاص. يخبر المسلمون في حياتهم اليومية آثار الإسلاموفوبيا، حيث يواجهون المضايقات والتحرشات، والتمييز العنصري، وحديث الكراهية في الشارع، والجماعات المتبجحة المعادية للإسلام على شاشات التلفزيونات القومية في برامج البث الإذاعي، وأفعال الكراهية مثل تفجيرات المساجد. بيد أن تلك الآثار قد تُفهم على أنها مجرد أفعال متفرقة تتماس أحياناً إذا لم يتم النظر إليها على أنها تقع داخل نموذج أصلى كامل للإسلاموفوبيا أو خطابها الذي يتخلل الثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

ومن أجل أن تعامس تلك الآثار في تناغم مع خطاب يبررها، لابد للإسلاموفوبيا أن تعمل على مستويين في أن: مستوى الأفكار والأحداث والإدراك؛ ثم المستوى المادى للسياسات والعنف والأفعال. من ثم، فإن بنية هذا الكتاب ذات نهج علمي مزوج يُنقّب عن كيفية عمل الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي مؤثر يقوم بتسيير أهداف الإمبراطورية الأمريكية. من ناحية، يقيم هذا الكتاب تحليلاته على كتابات أشخاص مثل برنارد لويس وفريد زكريا، وأعمال «المخبرين المحليين» من أمثال إيان هيرسي على وإرشاد منجي، وعلى خطابات لبوش وأوباما ووزرائهما وتابعيهما ومرحوسيهما من الذين توفر تحليلاتهم وفلسفاتهم السياسية الأساس الاستطردادي الراسخ لتطبيع الإسلاموفوبيا وتبريرها كسياسة دولة خارجية، وسياسة نقطية وأمنية واقتصادية، داخلياً وخارجياً.

من أجل تبسيط الصرح الأيديولوجي متعدد الأوجه للإسلاموفوبيا سنقدم توضيحا تفصيلياً لنموذجين من الإسلاموفوبيا متماثلين ومتنافسين في آن، هما النموذج الذي تطرحه كتابات برنارد لويس وذلك الذي تروجه كتابات فريد زكريا. ومما يستحق التكرار فإن هذين الاثنین لیساً من اابتدع روايات الإسلاموفوبيا التي انتشرت بعد ۹/۱۱، لكن يمكن القول إن أعمالهما تعتبر تركيزاً لروايات الإسلاموفوبيا التي كانت قد ظلت قيد التداول والتراكم طوال العقود السابقة. قام لويس وزكريا بعملية تقطير لكثير من معتقدات الإسلاموفوبيا وتكثيفها في خطابين منفصلين ومتقاطعين في آن يهدفان بوضوح إلى شرعنة نشر قوة الولايات المتحدة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، وإلى التحكم في سكانها المحليين. يتم تكرار النقاط الداعمة في هاتين النسختين من الإسلاموفوبيا في جميع وسائل الإعلام السائد، والدوائر السياسية، ومن خلال المخبزين المحليين (أشخاص من أصول مسلمة أو عربية يُزعم أنهم أفضل من يُعروُن المشاهد الداخلية للثقافة العربية/ الإسلامية وينقدونها) وتتردد أصداؤها في خطابات بوش وأوباما.

ومن جهة أخرى، سيوضح هذا الكتاب أن خطابات الإسلاموفوبيا هذا لها نتائج واقعية ملموسة. بتعبير آخر، فإن مفردات الإسلاموفوبيا هي الهراوات والحجارة التي بها تكسّر عظام المسلمين، من خلال هندسة الخوف الأورو/ أمريكي من المسلمين وكراهيتهم وإدارته وتوجيهه والعمل كوسائط له، داخل الولايات المتحدة وفي أنحاء الكوكب، كما يمكن تبرير السياسات الداخلية الجيدة التي كانت تعتبر سابقاً لا دستورية، بل حتى لا أمريكية، بصفتها أمورا ضرورية للأمن والحفاظ على الذات. كان التعذيب، بدءاً من الإغراق بالماء والعزلة المفرطة للمتهمين الأمريكيين بالولايات المتحدة إلى الوسم العنصري، والخطف، وعمليات التسليم الاستثنائي لبلاد تقوم بتعذيبهم، والاعتقالات بدون إذن قضائي، وتجميد إجراءات الاستدعاء القضائية، والحرب الشامل ضد بلدان ذات سيادة واحتلالها من نتائج نشر مزاعم الإسلاموفوبيا وتنميطاتها، ونماذجها وتحليلاتها.

سيبحث هذا الكتاب النتائج العنيفة للإسلاموفوبيا، التي تكاد ألا تخفي ويوضح

بخاصة تعدد شعاب الهجمات علي المسلمين والعرب في الولايات المتحدة. تعمل المنظمات والوكالات الحكومية مع المجالس التشريعية، والهيئات التنفيذية، بل وحتى القضائية علي استهداف الأمريكيين المسلمين والعرب. وتحديد ملامحهم، وتجميع ملفات عنهم وتجريدهم من حقوقهم الدستورية. تعمل جماعات المصالح السياسية. واللوبيات ولجان الفعل السياسي مع السلطات المحلية وسلطات الولايات المتحدة والسلطات الفدرالية من أجل عزل الجاليات المسلمة والمنظمات الطلابية والنشطاء والاكاديميين المسلمين وإثارة الذعر بينهم ومضايقتهم والتحرش بهم. وبالمثل، يبث الإعلام بكفاءة دعايات صريحة معادية تعمل علي شيطنة العرب والمسلمين وتزيد من حجم عداة التيار السائد للإسلام ومعتقيه. سنري كيف ترتكب أفعال متطرفة ضد العرب والمسلمين وضد أقليات أخرى يعتقد خطأ أنها منهم، علي خلفية وابل ضوضاء كراهية الإسلام هذه التي يطلقها البيض.

وفي الواقع، فإن هذا الكتاب ليس شاملا ذلك، لأنه من سوء الحظ فإن قائمة الأفعال والخطابات والأحاديث والأحداث والنشطاء والمشرعين المعادين للعرب والذين يبتون كراهية الإسلام والخوف منه أكثر من أن نستعرضها هنا.

يحتاج سرد أفعال الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، تلك التي ترتكبا الحكومة، والمواطنون العاديون، والمنظمات العامة، وموليوود، والوسائط الإعلامية إلي مجلدٍ ضخم من عدة أجزاء لا بد له وأن يبدو أنه كتالوج لتجليات الكراهية والبغضاء. وفيما أن العمل الجاد علي استقصاء كراهية العرب والإسلاموفوبيا أمر مهم، فإن هذا الكتاب يأمل أن يكشف تعقيدات التشكيل الأيديولوجي ذاته، من أجل فهم بنيته وتنظيمه، والملاحظة الناقدة لتجلياته في المجتمع الأمريكي. ولهذا السبب، نقوم بتعريف الإسلاموفوبيا وفحصها من منطلق نماذج أصلية استطرادية أخذناها علي شكل روايتين رئيسيتين، هاتين اللتين أمدنا بهما برنارد لويس وفريد زكريا. وبدلا من مناقشة جميع الأوغاد، والاكاديميين الزائفين، والسياسيين المأجورين، والمخبرين المحليين الدجالين، والناقدين الانتهازيين، والصحفيين النشطاء، مناقشتهم كل علي

حدة، فإن أعمال حفنة من دعاة الإسلاموفوبيا ومروجيها تساعد علي تحديد السقالات التي عليها تتسلق سياسات الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، وتجد السياسات الأمريكية الخارجية والداخلية تبريراتها.

### كلينتون / بوش / أوباما؛ استمرارية الإسلاموفوبيا

كُتِبَ الكثير عن كيفية استخدام بوش لأحداث ٩/١١ من أجل تغيير طبيعة الحريات المدنية، والرئاسية، والسياسية في الولايات المتحدة. يسرت حرب بوش علي الإرهاب، وما تلاها من حرب أوباما علي القاعدة أعمال قمع أنصار البيئة، والنشطاء من مناهضي الحروب، والأناركيين وغيرهم من الخارجين علي الإجماع، كما عملت أيضا علي استمرار تردي الحريات المدنية. بيد أن هذا الكتاب يجزم بأن الإسلاموفوبيا سبقت ٩/١١، وأيضا استمرت بعد إدارة بوش. توالى الاستمرارية من رئيس لآخر منذ جورج إيتش. دبليو بوش. استمر ظهور المسؤولين ممن خططوا للإسلاموفوبيا، وعملوا علي أن تصبح تيارا سائدا، وأضافوا عليها الصبغة المؤسسية ورسخوها في عقول الأمريكيين، بل وفي النظام القانوني ذاته، استمر ظهورهم وعودتهم إلي الظهور في مناصب وأماكن مختلفة طوال العقود التي تلت سقوط الاتحاد السوفييتي. ثمة استمرارية قوية من إدارة بوش إلي إدارة أوباما، كما أن تسرب السياسات التي استحدثت ضد العرب والمسلمين واستخدامها ضد قطاعات اجتماعية أخرى، مازال قائما مثلما يوضح عمل كريس كوياتش عن التحري عن السكان. كان كوياتش قد عمل مُدْعيا في إدارة بوش وساعد جون أشكروفت المدعي العام [وزير العدل] علي استحداث «تسجيل الدخول/ الخروج الخاص بالأمن القومي» وهو برنامج للتقصي، يتطلب أن تؤخذ بصمات جميع المواطنين من البلدان العربية في الغالب، ورصد تحركاتهم أثناء إقامتهم بالولايات المتحدة. كان أول ظهور لهجمة كوياتش علي الحريات المدنية للمواطنين من غير الأمريكيين أثناء تولي أشكروفت منصب وزير العدل. ثم عاودت تلك الهجمة الظهور في مذابح الحريات المدنية الأخيرة ضد اللاتينيين، حيث ساعد كوياتش علي صياغة قانون في ولاية تكساس يسمح لهيئات فرض القوانين بتوقيف أي شخص يشتبه في أنه غير مسجل بالوثائق الرسمية أو لا يحمل وثائق.

ما زالت أعمال الكراهية الخاصة، وسياسات تكوين الملفات عن الأشخاص وتحديد ملامحهم، والرقابة والإيقاع بالمسلمين الأمريكيين والمهاجرين وتقديمهم للمحاكمة من خلال استخدام مستفزين عملاء، وتوجيه اتهامات غامضة فضفاضة زائفة مثل «دعم الإرهاب مادياً»، ما زالت مستمرة علي الرغم من تغير الرئيس. تستمر مقاضاة المسلمين الذين تم اختطافهم بوسائل غير مشروعة وتوقيفهم بواسطة جيش الولايات المتحدة، من بينهم متهم في الخامسة عشرة من العمر كانت المعايير تقتضي أن يخضع لمعاملة إصلحية بوصفه أحد الجنود الأطفال، فيما تصاعد تسليم المشتبه بهم إلي جهات خارجية تقوم بتعذيبهم، وكذلك تنفيذ الاغتيالات المتعارضة مع الإجراءات القضائية. وبدلاً من مقاضاة بيك تشيني، ودونالد رمسفلد وألبرتو جونزالز كمجرمي حرب نظراً لانتهاكهم الواضح للاتفاقيات الدولية الراسخة ضد التعذيب، وحول معاملة أسري الحرب، فقد جاهد إريك هولدر المدعي العام بإدارة أوياما من أجل استمرار قمع حريات المسلمين المدنية بالولايات المتحدة. تحدي مكتبه شكايوي أشخاص مثل ماهر عرار وخالد المصري، ومظالمهما، حيث كانت الولايات المتحدة قد قامت باختطافهما ثم أخضعاً للتعذيب في سوريا والولايات المتحدة علي التوالي. وما هذه إلا القليل من إجراءات مماثلة كثيرة توضح لنا بقوة أن الإسلاموفوبيا ليست ظاهرة عرضية، بل علي النقيض، فإنها حملة مستدامة تعود أصولها إلي صعود العالم أحادي القطب. وهكذا، فإن القضايا التي يتعاطي معها هذا الكتاب تمتد خارج نطاق الأيام العنيفة المتهورة لنظام بوش الذي انتهك بصفاقة حقوق المسلمين والعرب، واستهدف النشطاء والأكاديميين والجائيات العربية والمسلمة. واستخدم العسكرية أداة رئيسية في سياسته الخارجية القائمة علي أساس الإسلاموفوبيا، فيما تقوم بتضمين أمثلة حديثة كثيرة من خطابات الإسلاموفوبيا، وأعمال الكراهية والبغضاء من أجل إثبات ما نعرض له. وفي واقع الأمر، فإننا لم نورد أعمال عنف كثيرة مثيرة للقلق، بل وصارخة، ارتكبت ضد المسلمين والعرب في الولايات المتحدة أثناء فترة رئاسة بوش الأولي وذلك من أجل تضمين أحداث وخطابات وسياسات ومحاكمات حدثت منذ عهد

قريب. علاوة على ذلك فإن هذا الكتاب يورد مصادر كثيرة متاحة من التيار السائد يمكن للقارئ العام غير المتخصص الوصول إليها بسهولة. أي أن النهج الذي يتبعه هذا الكتاب يتوخى الصرامة الأكاديمية ويذكر الهوامش بدقة، كما يجتري جميع الأحداث والمصادر والنصوص التي يحيل إليها، وعلى الرغم من ذلك، وكأساس لهذا المنهج الأكاديمي، فقد استندت عامداً إلى المقالات والوثائق والكتب التي يمكن لغير المتخصصين الحصول عليها بسهولة، وهذا الاستناد بأسلوب شبه حصري إلى إصدارات التيار السائد يتضمن الأنجلوفونية ومنافذ إعلام هذا التيار. بتعبير آخر، لم أستند إلى قائمة المهارات المتخصصة التي تميز بين طرق الباحثين الأكاديميين وبين مناهج بحث صناع السياسة والصحفيين الآخرين من غير المبتدئين والذين يتمتعون إلى التيار السائد.

يمثل تعقيد الإسلاموفوبيا تحدياً حيث إن التطورات الخطيرة التي حدثت في السنوات الأخيرة جعلت من الصعب إكمال هذا الكتاب بسبب توفر مادة غزيرة إلى حد الإفراط. أنني للمرء أن يتوقف عن ملاحظة التطورات المهمة الدالة وتحليلها في وقت تتكشف فيه تطورات جديدة يومياً؟ يساعد النهج المزدوج المستخدم في هذا الكتاب علي إطالة أمد الاستبصارات التي نأثي بها وأهميتها إلى زمن تكون فيه تلك الأحداث والمحاکمات، بل وحتى النقاد والمنظرون الذين استشهدنا بهم قد دخلوا في ذمة التاريخ منذ وقت طويل. وفي النهاية، فإن الإسلاموفوبيا تركيبة سياسية وثقافية، ولذا، فليس في نية هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام حيث إن الإسلام لا يحتاج إلى دفاع. إنه دين معقد وبسيط، راقٍ وحصيف، مركب وخمّال للأوجه تماماً مثل المسيحية واليهودية والبودية والهندوسية. إنه متنوع متباين يضم طوائف ومدارس ومجموعات أرثوذكسية [تقليدية] وأخرى جديدة مبتدعة. ليس هذا كتاباً يدافع عن الإسلام كدين أو عن المسلمين حيث إنني أذهب إلى أن فكرة أن الإسلام بحاجة إلى دفاع هي نوع من الإسلاموفوبيا، حيث إنها تمحو تماماً تعقيدات الدين وتختزل تنوعاته الثقافية والإقليمية وتأويلاته العقائدية إلى دين أصم أوحده، ويختزل المؤمنين به في شخصية مفردة تسمى «المسلم».

## الإسلاموفوبيا وشطحاتها: أوروبا والولايات المتحدة:

صادمة هي حقيقة أننا مازلنا نناقش «ما الإسلام؟»، و«من المسلمون؟» ولماذا يكرهوننا؟» إلخ.. وبخاصة أن أبحاث ودراسات المستشرقين البارزين من أمثال چاك بيرك، ومكسيم رودينسون، وألبرت حوراني قوضت فكرة أن الإسلام دين واحد أصم لا يتضمن أية تنوعات بين الشعوب والأزمنة والجغرافيات. بيد أنه فقد صدرت أعداد مفرطة من الدراسات التي تبرر استمرار ما يمكن اعتباره تفتيشا [قضائيا] في هوية المسلمين وعقيدتهم وضمايرهم، وليس تفحصا لها وبحثا فيها. تدل هذه الظاهرة علي أن الإسلام [في نظر هؤلاء] لم يعد في عصر العولمة هذا، ممارسة دينية فقط، بل إنه اكتسب وضعا أكبر كثيرا - وبخاصة في ضوء حقيقة أن القوي الإسلامية تبدو وأنها هي التي تقاوم، بشكل أساسي، غزو القوات الأمريكية، أو تلك التي تنوب عنها، لأوطان المسلمين. وكنتيجة لذلك، فمن الممكن القول إن الإسلام لعب دورا في العقود الأخيرة في إعادة تشكيل «سياسات الهوية» للمسلمين، بيد أن الإسلام كمحدد للهوية يعني أشياء مختلفة لمختلف الناس في مختلف الأماكن. وعلي الرغم من ذلك، لن يتفحص هذا الكتاب المسائل المتعلقة بهوية المسلمين الأمريكيين التي تغري بطرح أسئلة مثل ما إن كان من المستحسن أن ترتدي المسلمات الأمريكيات الحجاب أم لا ترتدينه، أو لم تختلف أسبابهن لارتدائه عن الأسباب التي أدت إلي ارتداء النساء المصريات له كتحد للدولة «السلطوية» العلمانية. أو الأسباب التي تجعل الجاليات المسلمة في الولايات المتحدة تندمج في المجتمع، وتحقق أعلى متوسط للدخل ومستوي التعليم بين الأقليات الإثنية هناك، علي حين تنزع الجاليات الإسلامية في أوروبا لأن تظل أكثر انعزالا.

ومع معرفة أن الإسلام أخذ في الانتشار كمحدد اجتماعي / ثقافي سياسي للهوية فلا بد وأن يتجنب هذا الكتاب أيضا مناقشة الفروق بين الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها شمال الأمريكية. ليست الإسلاموفوبيا حالة شمولية أو مفهوما أيديولوجيا أوجد أصم، أزعم أن الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها الأمريكية ظاهرتان

اجتماعيتان/ سياسيتان منفصلتان، وأذهب أيضا إلي أن الإسلاموفوبيا العربية/ المسيحية اليمينية، سواء تلك التي يعبر عنها الموارنة أو المسيحيون الأرثوذكس، أو الكلدانيون أو الأقباط هي أيضا ظاهرة منفصلة تنبثق عن أوضاعهم الخاصة التاريخية والاجتماعية. ومثلما يكتسب الإسلام معاني داخل إطار مفهوم سياسات الهوية التي يشكل جوهرها الأوضاع السياسية المحلية والسياقات الاجتماعية، فإن الإسلاموفوبيا يجري بثها بهدف أيديولوجي محدد ومن أجل إحداث آثار تعتمد علي أوضاع اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية محددة ومتنوعة. يختلف موروث الإسلاموفوبيا شمال الأمريكي عن نظيره الأوربي.

تأتي البرامج الوثائقية الأوربية التي بُثت مؤخرا، مثل وثائقيات النبي بي سي بعنوان «جيل الجهاد» مشبعة بالقلق الناجم عن ماضي بريطانيا الاستعماري حيث يُنظر إلي المهاجرين المسلمين في بريطانيا بصفتهم جالية منعزلة منبوذة، تجعلهم فلسفتهم المعارضة للاندماج عرضة لأخطار التطرف الإسلامي، لمخاوف أوروبا من المسلمين جذورها في مواقفها الأبوية تجاه الشعوب اللاغربية في وقت لم تعد السلطة الأبوية المطلقة موجودة. ظلت المراكز الكولونيالية تشعر بعدم الارتياح دائما من التفاعل مع ذوي البشرة السمراء كأنداد متساوين، وبخاصة هؤلاء الذين كان الأوربيون قد قدموا أنفسهم لهم على أنهم مفوضون من أجل جعلهم شعوبا متحضرة. يعود توتر الأوربيين من ذوي البشرة السمراء إلي تاريخهم الكولونيالي وإلي هزائمهم في عصور ما بعد الكولونيالية علي أيدي حركات التحرر القومية التي سرعان ما تبعها استعادة السطوة الأوربية الاقتصادية من خلال الكولونيالية الجديدة. بيد أن للإسلاموفوبيا الأوربية أصولها أيضا في قلقها من «الآخرين» الأوربيين أي اليهود الأوربيين، وبغضها لهم من ثم، فإنه في زمن ما بعد الهلوكوست وما بعد إسرائيل، أسقطت أوروبا نزوعها إلي معاداة السامية وبغضها لليهود علي المهاجرين المسلمين الجدد. بيد أنه أيضا، فإن إسقاط معاداة السامية علي الجاليات المسلمة في أوروبا هو تحويل لمشاعر الخسارة والاستياء والغضب الناجمة عن فقدان قومي أوروبا الإمبريالية السابقة إمبراطورياتها

الكوكبية في الوقت الذي عليها فيه تحمل العبء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ومسئولية ماضيها الكلونيالي. نتيجة لهذا، غدا صعود الإسلاموفوبيا في أوروبا يعبر عن نفسه من منطلقات الخوف من «أسلمة» أوروبا مثلاً، أو تردي العلمانية الراسخة، أو إفلاس دولة الرفاه الاجتماعي، أو «القنبلة الديموجرافية» الموقوتة، لكننا لن نبحث في هذا الكتاب سوى الإسلاموفوبيا الأمريكية فقط.

### الاستشراق مقابل الإسلاموفوبيا؛ تنويعات تاريخية؛

لا يجزم هذا الكتاب بأن الغرب ظل عدواً أبدياً للإسلام. كما أنه لا يقدم الإسلام علي أنه الدين القويم الوحيد الذي ليس له تاريخ مارس فيه المسلمون العنف، أو ماضي إمبريالي. كما أنه لا يقدم جميع المسلمين بصفتهم ضحايا أو يدافع عن أعمال العنف السياسي حينما لا يجوز الدفاع عنها. كما أنه أيضاً لا يقطع بأن الأمريكيين جميعهم يكتون بغضاً متأسلاً للمسلمين حيث إنه في واقع الأمر، فقد أوضح الباحثون بأسلوب مقنع وجود علاقة تاريخية حميمة بين الغرب والعالم الإسلامي، وبخاصة العرب المسلمون والسلافيون والبربر والأتراك، بل إن بعض من قاموا بمراجعة تاريخ الحروب الصليبية يذهبون إلي أن العلاقات بين المسلمين والأمراء الصليبيين والإمارات الأوروبية كانت أحياناً أكثر حميمة من العلاقة بين هؤلاء الأمراء ومنافسيهم المسيحيين. يتيح لنا فهمنا للإسلاموفوبيا بصفتها تشكيلاً أيديولوجياً داخل سياق الإمبراطورية الأمريكية، استلابها من أيدي «الثقافة» أو من الأسطورة التي تقول بوجود سلف واحد لها سواء كان هذا شخصاً أم تنظيمياً أم جماعة. من ثم، فإن هذا الكتاب يحيد مبتعداً عن الاعتقاد المتفق عليه في أوساط التقدميين والقائل بأن الإسلاموفوبيا قد ظلت موجودة بشكلها الحالي في الولايات المتحدة منذ عقود. فالأمر ليس كذلك ولا بد من التمييز بين الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي وبين أشكال العنصرية والتحيز في الماضي، بما في هذا الاستشراق، وهذا لا يعد تبرئة للاستشراق وأشكال كراهية العرب السابقة من ماضيها الخبيث. الأحري أن هذا الكتاب ينوي تأريخ الإسلاموفوبيا في سياقها السياسي الصحيح وذلك من أجل إبراز مدي تجلياتها العنيفة.

في الواقع، فقد ظل الاستشراق موجودا منذ بزوغ فجر عصر الكولونيالية. يكشف كتاب إدوارد سعيد، والذي يعتبر معلما في هذا المجال، كيف تم تشكيل مفهوم «المشرق» والموضوع «الشرقي» من خلال الأعمال البحثية الأكاديمية في العواصم الكولونيالية، حيث قامت تلك الأعمال بوضع الأساس «المنطقي» لتبرير الاستعمار، ولمحة نقل المدنية إلي تلك الشعوب، والسياسات الكولونيالية، وإعادة تنظيم العالم العربي وترتيب أموره. يوضح سعيد لنا أن الاستشراق ليس ظاهرة واحدة موحدة لازمانية. بل إنها تشكل أيديولوجي. ويصفته هذه فقد تعرض الاستشراق لتحويلات وتعديلات، كما أن له تنويعات. وعلي الرغم من أن الاستشراق لا ينضوي علي كراهية العرب إلا أن كثيرا من المستشرقين يزدرونهم. لكن أيضا، ومما يسبب الأسي للصهاينة والإمبرياليين اللاحقين، فإن كثيرا من المستشرقين كانوا محبين للعرب. اخترق الاستشراق تفكير الغرب وسيطر عليه إذ إنه شكل بنية الأسلوب الذي نفكر به «نحن» عن الشرق ابتدع «الاستشراق» «المشرق»، والعالم الإسلامي والشرق الأوسط، والشرق بأكمله كموضوعات للدراسة، وموضوعات للتحكم وموضوعات للإصلاح والفانتازيا والسحر والأذراء.. ابتدع «الشرق» من أجل تمييز «الغرب» عن «الأخرين الساميين» المجاورين له.

بيد أن الاستشراق ليس مرادفا للإسلاموفوبيا، بل إنه مهد الطريق لها؛ حيث يمكن القول إن الإسلاموفوبيا هي وريثة الاستشراق الذي نجح سعيد وآخرون في إبطال مزاعمه وإثبات زيف أمثلته ونماذجه. أستطيع القول إن الاستشراق، بالمعني الذي استدعاه سعيد، استُخدم أحيانا لشطيئة العرب كإثنية أو عرق. كان الإسلام مجرد سمة ثقافية تم أخذها في الاعتبار ودراستها في سياق أوسع لدراسة المشرق العربي وتحديده، إذ إن النماذج المعيارية التي أوردتها الاستشراق ذات توجه إثني وعرقي. ومن هذا المنطلق، يتم النظر للعرب والفرس والأتراك كمجموعات متميزة. وفقا للاستشراقين المؤسسين البارزين من أمثال إرنست رينان، فإن كون هؤلاء جميعا من المسلمين لا يعدو أن يكون من شطحات التاريخ، وفي هذا، فالاستشراق يختلف عن الإسلاموفوبيا.

إن شيطنة المسلمين والعرب عملية تهدف إلى صرف الانتباه وتحويله بقدر ما هي عملية تيريرية، حيث إنها تحول دون استيعاب الأمريكيين للحقائق المؤسفة للإمبراطورية الأمريكية أو علي الأقل تحول دون تعرفهم علي أدمية ضحايا الإمبراطورية. بيد أنه، في ظل الوجود المستدام لظواهر الإسلاموفوبيا وكراهية العرب، يمضي المثقفون، والنقاد، ورجال الدين، والأكاديميون في الغرب والعالم الإسلامي يتصدون لها ناقدين، وفاضين مزاعمها التبسيطية، وتعميماتها الفجة، والتجانس المطلق الذي تضفيه علي ثقافة المسلمين وهويتهم. برزت تميمطات الوسائط الإعلامية والمنتجات الترفيهية في مقدمة التفحصات الناقدة لهؤلاء. ولا غرو في هذا إذا نحن أخذنا في الاعتبار أن اللوحات التي رسمها الفنانون الاستشراقيون في القرن التاسع عشر قد واكبت الاستعمار والإمبريالية الأوروبية، وقدمت للمشاهد الغربي رؤية مُشَيَّنة لـ «الآخر»، أي أنها جعلت منه «شيئاً» يمكن تشكيل مفهوم عنه بمقارنته بالذات الغربية الأسمى، شيئاً غائباً، تهديداً، موضوعاً رومانسياً، و شيئاً يَسْتَدعي إخضاعه. أما في القرن العشرين، ومنذ الأفلام السينمائية الأولى، فقد ظلت جماهير المشاهدين الغربيين تتلقي الصور الاستشراقية للعرب والمسلمين وتستوعبها في وعيها ولا وعيها.

توضح لنا هوليوود كيف أن الخوف من المسلمين وكراهيتهم لا يعدوان في واقع الأمر أن يكونا تنويعاً أُخري علي ظاهرة كراهية العرب العنصرية. منذ بزوغ فجر السينما، ظل يُضفي علي العرب سمات غرائبية، فهم البدو المفعمون بالحوية، أو البرابرة الذين يتسمون بالفحولة ويمتطون الإبل، أو الهمجيون الأجلاف النبلاء. ثم تغيرت فيما بعد تمثيلات العرب ليصبحوا يساريين راديكاليين علمانيين متطرفين، أو حلفاء الشيوعيين أو مشايخ النفط. ثم تطورت الصور تدريجياً في الثمانينيات لتصبح صور المسلمين / العرب المتطرفين، لكنها كانت مازالت تقدّم علي أنها نقيض للمجاهدين المسلمين الأبطال من أتباع رامبو. ظل العرب الأمريكيون، المسلمون منهم والمسيحيون دائماً علي معرفة بهذه التمثيلات، ومضي الباحثون والأكاديميون ينشرون دراسات قيمة تتناول تميمطات العرب في أفلام هوليوود وفي الإصدارات

المطبوعة والتلفزيون. لكن ما يفوق دراسة تنمطيات العرب الخبيثة وتحليلها أهمية، هو أن أعمالاً مثل «تغطية الإسلام» و«لقاءات ملحمية» قد أوضحت أهداف العمل علي انتشار شيطنة العرب والنتائج الأيديولوجية المباشرة المترتبة علي ذلك. تمدنا الآراء الثاقبة في الدراسات الناقدة للاستشراق والتنميطات والتبسيطات بأدوات لفهم كيف تخدم الإسلاموفوبيا أهدافاً مماثلة لأهداف المخططات الأمريكية السياسية.

يتبع هذا الكتاب نموذج هؤلاء المفكرين الناقدين من خلال تفحص الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية، مع التركيز علي فترة ما بعد ٩/١١، لكن أيضاً يحدد أصول انتشار الإسلاموفوبيا بظهور عالم القطب الأحادي، مع سقوط الاتحاد السوفييتي وصعود الولايات المتحدة كقوة كوكبية مهيمنة لا يتحداها أحد، تمازجت أشكال سابقة من الاستشراق والعريوفوبيا مع أشكال جديدة من الإسلاموفوبيا السياسية. وفي واقع الأمر، وكما سنرى، فما زال يتم تحديد العرب (في شمال أمريكا وأوروبا والعالم العربي) بصفتهم مصدر جميع «الشُرور» التي يتسم بها الإسلام. بيد أن الفرق بين أشكال الاستشراق السابقة و الإسلاموفوبيا المعاصرة هو أن «خطايا» العرب المسلمين المزعومة يعاقب عليها الآن جميع المسلمين حيث إنهم جميعهم يحملون مسؤولية الإخفاقات، والتخلف واللاعقلانية التي كان المستشرقون قد اقتصوا بها ثقافة العرب السامية وتاريخهم. الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية اليوم هي الاستشراق وقد تطاير وانتشر وارتقت منزلته لتصبح تلك النسخة الجديدة ما بعد الحداثية التي نعرفها اليوم. وفيما كان العرب ذوم البشرة السعراء في السابق يشكلون مجموعة الأنجاس المنبوذين، فقد أُسقطت تلك النظرة علي المسلمين بعامة وأدمجت في لا وعي أمريكا العنصرى.

ظل التيار السائد في أمريكا منذ وقت طويل يستهدف المسلمين السود ويخضعهم للتنميط، هذا علي الرغم من أن منظمات المسلمين السود، بما في هذا منظمة أمة الإسلام، ظلت تعمل بجد واجتهاد لتمكين جماعات السود الفقراء، وظلت في مقدمة المكافحين ضد تسرب المخدرات والكحوليات، وأنشطة العصابات إلي جماعات السكان السود. كما أن تلك المنظمات والأفراد يعملون كقوة أمن ذاتي، وتعليم ذاتي في أوساط

الأفروأمريكيين، وأيضا ظل لهم حضور إيجابي في إعادة تأهيل كثير من المسجونين السود الذين تعج بهم السجون الأمريكية بدرجة لا تتناسب مع أعدادهم في المجتمع الأمريكي. كانت شيطنة تنظيمات «المسلمين السود» في الماضي مرتبطة بشيطنة حركة السود التحررية، وأنت كرد فعل علي نجاح تمكين السود الذين رفضوا صراحة الذوبان في مجتمعات البيض وتبرنتهم من أجل إنهاء المظالم العنصرية التاريخية. بيد أنه، ومنذ وقت ليس بالبعيد، بدأ التيار السائد في أمريكا في شيطنة تنظيم «المسلمين السود» زاعما أنهم دعاة فتنة يشكون أقلية داخل أقلية. قام الصحفيون، والمنظرون والناقدون والنشطاء بإبراز صورة لنظام السجون في أمريكا بصفتها مركز المراكز لردكلة أمريكا السوداء والعمل علي تطرفها، ولم يخطر لهؤلاء المعلقين القول إن هذا الخطر لم يكن ليوحد إذا لم تقم الولايات المتحدة بسجن واحد من كل ثمانية رجال سود ممن هم في العشرينيات من أعمارهم. وبدلا عن ذلك، تؤكد منافذ التيار السائد للمهتمين بعلم الإجرام أن معتقلات أمريكا تحولت إلي مراكز لتجنيد المسلمين المتطرفين وتدريبهم حتي أن مؤسسة راند أصدرت تقريرا تحذر فيه من أخطار ردكلة نزلاء السجون الأمريكية السود.

الأسلوب الذي امتزج فيه تحرر السود بخطر الغزو الإسلامي يخاطب التوترات العرقية التي تشكل الأساس التحتي للإسلاموفوبيا. فبعد كل شيء فقد كانت المجموعة الأولى من المسلمين الذين استقدموا إلي الولايات المتحدة هم الأفارقة المسترقون. برهنت عدة دراسات قوية مقنعة علي أن رحلة العرب والمسلمين الأمريكيين لم تكن سهلة علي الإطلاق، وفيما تطغى المحن التي تعرض لها الأفارقة المسلمون المسترقون علي معاناة نظرائهم العرب وتفوقها كثيرا، فقد أخضع المهاجرون العرب، وكان غالبيتهم من المسيحيين، لوابل من التشريعات العنصرية، وسوء المعاملة الاجتماعية، والتحييزات، والانتهاكات والتحرشات. تضمنت محن الأفارقة «اللينش» [أي الإعدام شنقا دونما محاكمة قانونية] في الولايات الجنوبية، والمثول أمام المحاكم في حالات التزاوج [زواج السود بالبيض]. لا يمكن فصل قضية «العرق» عن الاستشراق وكرامية العرب

والإسلاموفوبيا. ما يميز أعمال العنف العنصرية تلك ونماذجها الأصلية هي الأوضاع والسياقات السياسية التي فيها يتم استخدام الإسلاموفوبيا من أجل حشد الجماهير وتعبئتهم. ومثل أعمال العنف والإجراءات العنصرية التي يرتكبها البيض الأمريكيون من منطلق شعورهم بالسمو العرقي، ضد السود واللاتينيين فإن الإسلاموفوبيا جزء من تشكيلات أيديولوجية أوسع موجودة داخل ثقافة الولايات المتحدة وسياساتها. أتت الإسلاموفوبيا بهذا الشكل المركب كمزيج أيديولوجي داخل ثقافة التسعينيات وسياساتها مواكبة للعولمة وصعود الإمبراطورية الأمريكية. من ثم، ستوضح الفصول التالية كيف أن الإسلاموفوبيا هي أحدث تشكيل أيديولوجي يتم نشره من أجل تيسير السطوة الأمريكية، السطوة الأمريكية في لحظة أحاديثها القطبية.